3 me Année, No. 129. | Lundi-23-12-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العــدد ١٢٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٤ — ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العــــدد

أبو الطيب المتنبي

بمناسبة ذكراه الالف



المتنبى كما تخيله جبران

فى مثل هذا الأسبوع من سنة أربع وخمسين وثلثمائة للهجرة طُلَّ فى سواد بغداد دم الرجل الطموح والبطل الشاعر أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى، فهمدت بهموده نفس دائبة الشبوب وعزيمة دائمة الوثوب وهمة رفيعة المصعد! وكان المأمول أن يكون هـذا العدد من الرسالة ديواناً لما يلقيه

أساتذة الجامعة المصرية من المحاضرات فى (أسبوع المتنبى) ، ولكن العواصف الهُوج التى ثارت بالبلاد فروعت قلوب الناس ، وزعزعت سلام الجامعة ، حالت من دون هذا الأمل . وأبو الطيب الذى رُزق السعادة فى شعره ، وأوتى النباهة الخالدة فى ذكره ، لا يزال حظه العاثر لعبة الأيام وألهية القدر ! هـذا العراق الذى وُلد به ودفن فيه قد أعرض بسمعه عن ذكراه ، وهو المثل الذى يرتجيه لشبابه ، والروح الذى يبتغيه لنهضته ! وهـذه حلب التى جعلها نشيدا فى فم الزمن ، قد قسم الهوى رأيها على ذكراه فجاءت بما لا يتفق مع قدره ، ولا يسمو إلى جلاله ! وهذه مصر التى كان أول من أخذها بالخضوع الضارع [١] ، وعابها بالزهد الوضيع [٢] ، ونبه عينها الوسنى إلى فساد الحكم [٣] قد دفنت ذكراه بين وعد من (رابطة الأدب العربى) عفى عليه النسيان ، ونية من الجامعة المصرية ثبّطت عنها الحوادث ؛ فلم يظفر شاعر القوة وشهيد المجد إلا بحفلتين جديرتين بفضله : حفلة قومية أقامها شباب العرب الأبرار فى (سان باولو) ، وحفلة رسمية سيقيمها رجال الأدب الأخيار فى (دمشق) ! وسان باولو لم تخلق فى دنياه ، ودمشق لم تذكر فى شعره

***

كان أول عهـدى بالمتنبى أن والدى — سقى الله ثراه — أهدى إلى فى يوم من الأيام ديوانه ، وكنت لا أزال غلاماً يافعاً قد ارتفع قليلا عن سن الحداثة ، فأنا أقرأ القصص ، وأحفظ المتون ، وأتلقى الدروس الأولية فى الأزهر ، وأكثر من نظم الشعر فى المناسبات المختلفة على معانٍ سقيمة وقوالب مشوشة ؛ فأراد أبى أن أستعين بالنظر فى هذا الديوان على تقويم ملكتى وتهذيب طبعى ؛ فأقبلت عليه اقبال المنهوم المحروم ، لأنه الكتاب الوحيد الذى أملك ، والغـذاء الشهى الذى أحب ، والحنان الأبوى الذى أقدس . كنت أقرأه فأدرك موسيقاه بشعورى ، وإن كنت لا أدرك معناه بعقلى ، وأحس أن شعاعاً سحرياً ينبثق عن سطوره ، فيغمر القلب بالنشوة ، ويرفع النفس بالحماسة ، كاللحن القوى ينساب فى الأذن الأمّيّة نغما من غير معنى ، وجمالا من غير تحديد ، ووحياً من غير بيان ، ولذة من غير وعى

ازداد على الدرس والأيام فهمى للمتنبى ، فصار للذوق الساذج حجة من الفن ، وللحب الذى صادف خلاء من القلب قوة من المنطق . وكان أستاذنا المرصفى — تغمده الله بالرحمة — لا يصح فى رأيه أحد من الشعراء المولدين وبخاصة أبو الطيب ، فدس فى أذواق تلاميذه الكراهة له والنفور من شعره ؛ وتأثر بذلك الايحاء رفيقاى طه حسين ومحمود زناتى ، وقاومه فى نفسى تلك العوامل الأولى فلم أر رأيهما فيه ، ولم أُبالِ تعصبهما عليه ؛ وكَثُرَ مَا كنا نتمادى فى أدبه ، ونتهاجى بسببه ! ولا زلنا نتذاكر تلك المداعبات الأدبية الأخوية فنستروح منها شميم الصبى الغريض ، ونسيم العيش الأبله ، ونفح الولاء الخالص

***

إن أبلغ ما أثر فى نفسى من حياة المتنبى منذ عرفته هى هذه النفسية المعـذبة بين الطموح والعجز ، وتلك الشخصية المذبذبة بين الوسيلة والغاية : سمت نفسه منذ أيفع إلى معالى الأمور ، ولم يجد معيناً عليها غير المال والقوة . أما القوة فقد التمسها فى قيادة الأعراب باسم الدين أو باسم العدالة فأخفق ، وأما المال فاحتال عليه بوحى العبقرية وقوة الشاعرية فأصاب . وكان الشاعر المغامر من هذه الوسيلة الأرضية ، ومن تلك الغاية السماوية ، بين عاملين مختلفين : عامل يرفعه فيُدِلُّ على الملوك ، ويتأبّى على السوقة ، ويتجافى عن الهون . ويقول لبعض الأمراء :

وفؤادى من الملوك وإن كا ... ن لسانى يُرَى من الشعراء

وعامل يضعه فيهش للهِبَة هشاشة السائل ، ويحرص على المال حرص الشحيح ، ويعفر خدّه الأصعر فى البحث عن درهم ، ويقول لبعض الأغنياء :

تهلل قبل تسليمى عليه ... وألقى ماله قبل الوساد

ولكنه فى كلتا الحالين كان طالب مُلك ، وعاشق مجد وخاطب دولة

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

(١) سادات كل أناس من نفوسهم ... وسادة المسلمين الأعبُد القزُمُ
(٢) أغاية الدين أن تحفوا شواربكم ... يا أمة ضحكت من جهلها الأمم
(٣) نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... حتى بشمن وما تفنى العناقيد

٥ ـ المجنون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ثم إن (نابغة القرن العشرين) استخفَّه الطربُ فذكر صواحبه وجيلاته من فاطمة الى رَبَاب؛ ومن طبع المجنون أنه إذا كَذَبَ صدَّق نفسه، فإن قوة الضبط في عقله إما معدومةٌ وإما مختلَّة، وكلُّ وجهٍ تخيَّل منه خيالا فهو وجهٌ من وجوه العلم عنده إذ كان عالَمُه أكثرُه في داخله لا في العالَم، فاذا توهم أو أحسَّ أو شعر فانما يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء، فليس يحتمل عقلُه إلا فكرةً واحدةً تمضي منفردةً بنفسها مستقلة بمعناها كأنها قَدَرٌ غالب على جميع أفكاره الأخرى، فلا شأن لها بالواقع ولا شأن للواقع بها، وإنما هي تحقق معناها كما تخطرُ له لا كما تتمثَّل فيما حوله. فبين كل مجنون وبين ما حوله دماغُه المُتَدَجِّي بالغيوم العقلية، لا تزال تَمْرِضُ له القيمةُ بعد القيمة من اختلال بعض المراكز العصبية فيه، وفسادِ أعمالها بهذا الاختلال، وقيام الطبيعة فيها على هذا الفساد.

ومن ذلك تنقلب الكلمةُ من الكلام وإنها لحادثةٌ تامةٌ في عقل المجنون كالقصة الواقعة لها زمانٌ ومكانٌ وبدءٌ ونهاية، لا يخامره فيها الشك، ولا يعتريها التكذيب؛ وكيف وهي قائمة في ذهنه من وراء سمعه وبصره قيامَ الحقيقة في الأبصار والأسماع؟ وللحواس المجنون جهتان في العمل لأنها بين كونين أحدهما الكونُ الخَرِبُ الذي في دماغه؛ وفي هذا يقول (نابغة القرن العشرين): إن في داخل عينيه منظارا يرى به الأشياءَ في غير حقائقها، أي في حقائقها.

وحدثنا الدكتور محمد الرافعي قال: إن في دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغة كنابغة القرن العشرين ذُكرت أمامه قيصرة روسيا وخَبرُ مقتلها، فأحفظَهُ هذا وأرْمَضَه وقال ياويحهم! كذبوا عليها وعليَّ... فسأله الدكتور: وكيف ذلك؟ قال: كان من خبر القيصرة أنها رأتني فأحبتني وعلمتْ من كل وجه يمكن أن يعلم منه قلبُها أني أنا رجلُها لا القيصر. فما زالت بعدها تُناكِدُ القيصر وتَلْتَوِي عليه ولا تصالح له في شيء حتى يئس منها فطلقها. فحملت كنوزَها وحلاها وجاءت الى حبيبها. ثم تبعها نفيُ القيصر ولم يُطق العيش بعدها فانتحر.... ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوز فأخفاها هو في مكان حريز لا يعلمه إلا هو؛ ثم إنه هو لا يصل الى هذا المكان الذي أحرزها فيه إلا إذا نام... كيلا يراه أحد من الشيوعيين فيتعقبه فيعلم مقرها. ولهذا كان من الحكمة أن ينسى المكان إذا استيقظ... فقد يزلُّ مرة فيخبر به أو يغلبه الشوق مرة على عقله... فيذهب اليه فعسى أن يراه من ينمّ بذلك فتفتضح الحبيبة وتؤخذ منه، قال: وإن القيصرة هي تحتاط أيضاً مثل ذلك فتراسله كل يوم باللاسلكي رسائلَ تقع من الجو في دماغه فيقرؤها وحده. وإن أخوف ما يخافه أن يغلبها جنون الحب يوماً فتطيش طيش المرأة فتزوره في هذا المارستان...... فقد تُقتل إذا رآها الشيوعيون

قال الدكتور: وهناك (نابغة) آخر ثبت في ذهنه أن امرأة من أجل النساء قد استهامتْ به وأنها مُبتلاةٌ في حبها إياه بجنون الغيرة، وقد تناهتْ فيه حتى إنها لتقتل نفسَها إذا علمت أن لصاحبها هوى في امرأة أخرى. وخيَّلته هذه الفكرة فاعتقد أن حبيبته من جنون غيرتها واقعة بين السلامة والتلَف؛ ثم توهم ذاتَ يوم أن واشياً قد أعلمها أن النساءَ افتتنَّ به؛ فطار صوابها فهي آتيةٌ إليه في المارستان لتوبخه وتشفي غيظَها منه ثم تنتحر أمام عينيه. وأدار (النابغة) الفكر في إقناعها لتعلمَ أنه لم يخنْها بالغيب.... فلم يهتد الى مَقْنَع تَسْتَيْقِنُ به المرأةُ أن لا أرَبَ للنساء فيه إلا أنْ.... فقطع وَجَبَّ خصيتيه بيده ليقدمهما برهاناً أنه لها وحدها....؛

* * *

قلنا: وطرب نابغة القرن العشرين، فذكر صواحبه وجيلاته فجعل يترنم بهذا الشعر:

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوَى فقلتُ لهم
ما لذةُ العيش إلا للمجانين

فقال المجنون الآخر: «مما حفظناه»: ما لذة «الخبز» إلا للمجانين....

فضحك (النابغة) وقال : ما أسخفك من أحمق . إذا كان هذا هو المعنى فقل ما لذة (الكعك) . ألم أقل لكم إن هذا الأبله لو تهجّى كلمة خبز لقال إنها ل . ح . م . ولو تهجى كلمة لحم لقال ف . و . ل . . . .

إنه طفل عمره ثلاثون سنة وفيه دائماً غضب الطفل ونزقه وحماقته ، وفيه كذلك سرور الطفل وطيشه وأحلامه ؛ غير أنه ليس فيه عقل الطفل . وهو من الضعف وشدة الحاجة إلى العناية في حياطته وسياسته والبرّ به كطفل صغير — بحيث يخيّل إليّ أحياناً أنني أمّه . . . . . .

قلنا : وتنسى في هذه الحالة أنك رجل ؟

قال : وأنتم كذلك تتهمونني بالنسيان وهو شرعاً تهمة ملازمة للحكم بالجنون . فما النسيان إلا الكلمة الأخرى لمعنى ضعف العقل ؛ وضعف العقل هو اللفظ الآخر لمعنى جنوني ؛ وقد أعلمتكم ما أكره من الكلام .

قلت : لا ، إن النسيان لا يكون منك نسياناً بمعناه في المجانين ، بل بمعناه فيك أنت من توائب الأفكار النابغة وتزاحمها في تواردها على العقل . فاذا توائبت وتزاحمت كان أمرها إلى أن ينسي بعضها بعضا فلا ينطلق منها إلا القوي النابغ حق نبوغه ، فيجيء كالمنقطع مما قبله ، فيحسب ذلك نسياناً وما هو به . وقد تصطلح الافكار في هذه المركة الذهنية إذا كان النابغة مسروراً محبوراً يرقص طرباً . . . . فيكون أمرها إلى أن تجيء كلها معاً على اختلاف معانيها وتناقضها ؛ فيحسب ذلك ضرباً من الذهول عند من يجهل العلة النبوغية ؛ وعذره جهل هذه العلة وهي في دلالة العقل ليست نسياناً ولا ذهولاً

قال : فأعلمني كيف نسيان المجانين فقد خفي عليّ أن أدرك هذا الأمر العجيب فيهم ، ولست أدري كيف يفوتهم ما استدنى لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقر وحصل في عقولهم ؟

قلت : لا يكون النسيان تهمة بالجنون إلا في أحوال ثلاث جاءت بكلها الرواية الصحيحة المحفوظة :

فأما الأولى فما يُروى عن رجل كان سرياً غنياً وعُمّر حتى أدركه الخرف ؛ فجاءه كاتبه يوماً يستعينه على تجهيز أمه وقد ماتت فدفع إلى غلام له دنانير يشتري بها كفناً ودنانير أخرى يتصدق بها على القبر ؛ ثم قال لغلام آخر : إمض إلى صاحبنا وغاسل موتانا فلان فادعه يغسلها . قال الكاتب : فاستحييت منه وقلت ياسيدي ابعث خلف فلانة وهي جارة لنا تغسلها . قال يا فلان ما تدع عقلك في حزن ولا فرح . كيف ندخل عليها من لا نعرفه ؟

قال الكاتب : نعم تأذن بذلك . قال لا والله ما يغسلها إلا فلان

فضاق الكاتب بهذا الحق وقال : ياسيدي كيف يغسل رجلٌ امرأة ؟

قال : وإنما أمك امرأة . . ؟ والله لقد أنسيت

وأما الحالة الثانية فما يُروى عن رجل كان نائماً في ليلة باردة فخرجت يده من الفراش فبردت ، فأدناها إلى جسده وهو نائم فأحس بردها فأيقظته ، فانتبه فزعاً فقبض عليها بيده الأخرى وصاح : اللصوص . اللصوص . . . هذا اللص قد قبضت عليه أدركوني لئلا تكون في يده حديدة يضربني بها ، فجاءوا بالسراج فوجدوه قابضاً بيده على يده وقد نسي أنها يده . . .

وأما الثالثة فهي رواية عن رجل قد ورث نصف دار ، ففكر طويلا كيف تخلص الدار كلها له ثم اهتدى الى الوسيلة ؛ فذهب الى رجل وقال له : أريد أن أبيعك حصتي من الدار وأشتري بثمنها النصف الباقي لتصير الدار كلها لي . . .

* * *

قال (النابغة) لعمري إن هذا لهو الجنون ، وما يذكر مع هؤلاء مجنون المتن ولا غيره . . .

فقال الآخر : تالله لولا أن (نابغة القرن العشرين) يدفع نفسه عن الجنون لجاء في الجنون بما يذهل العقول . . .

ثم نظر فاذا النابغة يتحفز له . . . ؛ فأسرع يقول : « مما حفظناه » كُن حذراً كأنك غِرّ ، وكن ذاكراً كأنك ناس . فهذا هو نسيان نابغة القرن العشرين ، نسيان حكماء لا نسيان مجانين

قال (النابغة) ولكن قد فسد قول الشاعر ، ما لذة العيش إلا للمجانين ؛ فما بقيت مع الجنون لذة

قلت : إن الشاعر لا يريد المجانين الذين هم مجانين بالمرض وإنما يريد العشاق المجانين بالجمال ؛ وجنون العاشق في هذا الباب

كعيوب العظماء من أهل الفن ، وهى عيوب تدافع عن نفسها بحسنات العظمة فليست كغيرها من العيوب

قال : فيجب أن أصنع بيتاً آخر يفسّر ذلك الشعر ليستقيم لى التمثّل به . ثم فكّر وهمهمَ ، ثم كتب فى ورقة ثم طواها وقال : اصنع أنت أولُ ، وسأئتمن س . ع . على شعرى ودفع إليه الورقة

فنظرت وقلتُ : يجب أن يكون الشعر هكذا :

قالوا جُننت بمن تهوى فقلتُ لهم
ما لذة العيش إلا للمجانين
العقلُ إن حَكمَ العُشاق أثقلُ من
فقرٍ تحكّم فى رزق الجائين

ونشر س . ع . الورقة فإذا فيها :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم
ما لذة العيش إلا للمجانين
إن العيوب عن المجنون دافعةٌ
بأنه نابغ فى القرن عشرين ...

وضحكنا جميعاً ؛ فقال النابغة : أبعدك الله يا س . ع . إن من من ائتمن المجنون على سرّ وقال له اكتمه فكأنما قال له انشره

* * *

ثم قال : وددتُ والله أن يكون س . ع هذا نابغة ، ولكنى سأجعله نابغة ، فقد صار له علىّ حقُّ الصديق وهو حق لا أضيّعه ولا أُخلّ به . فإذا احتجت يا س . ع إلى خطاب رنان تلقيه فى حفل عظيم ، أو قصيدة تمدح بها وزير المعارف ، فالجأ إلىّ فأنى ملجأ لك . ومتى انتحلت شعرى كنت عند الناس المتنبى أو البحترى أو ابن الرومى ، فإن هؤلاء القدماء لم ينفعهم إلا أنى لم أكن فيهم ، ولما لم أكن فيهم أعجبوا الناس إذ أننى لم أكن فيهم

قلنا فما حكمك عليهم فى الأدب ؟

قال : إذا حكمتُ عليهم فقد جعلت نفسى بينهم ، فمن الطبيعى ألا يعجبنى منهم أحد . إن « نابغة القرن العشرين » لا يقول لمثل هذا أحسن فإنه هو فوق الأحسن ، ولا يقول « نابغة هذا أشهر فإنه هو فوق الأشهر

قلت : كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهد العظيم الذى لا يقول فى حُسن هذا أحسنُ لأنه فوق الشهوة ، ولا فى نعم هذا أطيبُ لأنه فوق الطمع ، ولا فى مال هذا أكثر لأنه فوق الحرص . وأحسبك لو كنت ترعى غنماً لكنت الحقيق فى عصرنا بقول تلك الراعيــة الزاهدة : أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلح بين الذئب والغنم

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : حكى عن بعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال فى نفسه : يارب . مَن زوجتى فى الجنــة ؟ فأُرِىَ فى منامه ثلاث ليال أنها جارية سوداء فى أرض كذا . فجاء تلك الأرض فسأل عن الجارية ، فقال له رجل ما هذا ؟ تسأل عن جارية سوداء مجنونة كانت لى فأعتقتها ؟ قال وماذا رأيتم من جنونها ؟ قال : كانت تصوم النهار فإذا أعطيناها فطورها تصدقتْ به ، وكانت لا تهدأ الليل ولا تنام فضجرنا منها

قال : فأين هى ؟ قال ترعى غنماً للقوم فى الصحراء

فذهب إلى الصحراء فإذا هى قائمة فى صلاتها ، ونظر إلى الغنم فإذا ذئبٌ يدلها على المرعى وذئبٌ يسوقها . فلما فرغت من صلاتها سلم عليها فأنبأته أنه زوجها فى الجنة وأنبأها أنه بُشّر بها ؛ ثم سألها ما هذه الذئاب مع الأغنام ؟ قالت : نعم أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلح بين الذئب والغنم

قال (النابغــة) : هذا كذب لأنه عجيب ، وهو عجيب لأنه كذب

قلت : وأى عجيب فى هــذا ؟ إن الذئب والشاة ، والأسد والغزال ، والثعبان والعصفور ، وكل آكل ومأكول من الأحياء ، لو هى دخلت فى دائرة الصلاة الحقيقية لانتظمت كلها صفاً واحداً يركع ويسجد . فهذه الجارية نشرت رُوحَ الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئن بالإيمان ، فوقع الذئب منها فى دائرة مغناطيسية ، فسُلبَ وحشيته ورجع مُسَخَّراً لفكرة الصلاح والخير إذ تجانست فيــه الحياةُ بما حولها ، وانسجم النوعُ والنوعُ فى حركة متجاوبة انسجامَ الرجل المغناطيسى هو ومن ينوّمه فى إرادة واحدة وفكرة واحدة

قال (النابغة) : فإذا دخل الذئب مسجداً يرتجّ بالمصلّين ، أتراه يَصُفّ أربعتَهُ ويقف بينهم للصلاة ، أم يصلى صلاتَه الذئبيةَ فى لحومهم ؟

قلت : وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة فيخرجون بها

من النفس إلى الكون ، ومن الزمن إلى الأبد ، ومن الأسباب إلى مُسبِّبها ، ومما فى القلب إلى ما فوق القلب ؟ إن هؤلاء جميعاً يصلون بجوارحهم وبينهم وبين أرواحهم طولُ الدنيا وعرضها ؛ وما منهم إلا منْ يتصل فكرُه بما يغلب عليه كما يتصل فكر اللص بيده ، وفكر العاشق بعينه ، وفكر الطفيلى بمعدته . . . فاسمها عندهم الصلاة وحقيقتها عند الله كما ترى

قال (النابغة) ولكنه ذئب من طبيعته أن يأكل الشاة لا أن يرعاها ، فلا أفهم شيئاً .

وقال الآخر : « مما حفظناه » رَتَعَ الذئب فى الغنم ، ولم يقولوا صلى الذئب فى الغنم ، فلا أفهم شيئاً .

قلت : سأزيدكما عدم فهم ... إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة متصل بالله ، وليس فيه شىء من طباعها الانسانية ولا ظلٌّ من ظلال الدنيا ؛ وقد تجلى فيه سرُّ الحياة ، وهو السر الذى لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتهى ولا يطمع فى شىء ولا يحرز شيئاً ، وإنما طبيعته أشواقه الكونية واتصالهُ بنفحات القوة الأزلية المسخِّرة للوجود كله . فانتشرت هذه الموجة الكهربائية الأثيرية حول الجارية من قلبها ، وجاء الذئب فالتجّ فيها وغمرته الروحانية الغالبة فاذا هو يفتح عينه على كون غريب قد تجلَّى السلامُ عليه ، فليس فيه إلا قوة آمرةٌ أمرها بائتلاف كل شىء مع كل شىء ، واجتماع المتنافرين فى حالة معرفة لا فى حالة إنكار . فصار الذئب مستيقظاً ، ولكنه فى روح النوم ، وشُلَّت فيه الذئبيةُ الطبيعية فاذا هو يحمل الأنياب والأظافر وقد أُنسىَ استعمالها ، وبقيت حركتُه الحيوانيةُ ولكن تعطلت بواعثها فبطل معناها

ومن كل ذلك اختفى الذئبُ الذى هو فى الذئب ، وبقى الحيوان حيّاً ككل الأحياء ، فناسب الشاة وفزع اليها إذ لم تعد العلاقة بينهما علاقةَ جسم الآكل بجسم الأكيلة ، بل علاقة الروح الحى بروح حى مثله [1]

* * *

قال (النابغة) : أما أنا فقد فهمت ولكن هذا المجنون لم يفهم . أكتب يا س . ع : جلس نابغة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعدادٍ ولا تمكُّنٍ ، وبدون كتب ألبتة ... وكان هذا أجمع لرأيه وأذْهَنَ له وأدعى لأن يتوفَّر على الاملاء بكل مواهبه العقلية ؛ ولما أن فكر النابغة وأعطى النظر حقه وجمع فى عقله الفذّ جزالةَ الرأى إلى قوة التفنن والابتكار ، قال مرتجلا : إن فلسفة الذئب والشاة حين لم يأكلها ولم تنطحه ، هى بالنص وبالحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين ...

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة

فامتعض الآخر وقال : « مما حفظناه » :

وبات يقدح طول الليل فكرته وفسر الماء بعد الجهد بالماء

فقال (النابغة) : ويلك يا أبله ! أما والله لو كنت نفطويه أو سيبويه لما كنت عندى إلا جحشويه أو بغلويه . . .

لقد كنت أرى الكلام فى تلك الفلسفة طريقاً نزهاً جميلا حفته الأشجار والأزهار عن جانبيه ، واندفعت فى سوَّاته (تعبيلاتُ) الأفكار خاطفة كالبرق . فلما تكلمت أنت انتهينا من سخافتك إلى طريق حجرى تقعقع فيه عربات النقل تجرها البغال البطيئة

فقال الآخر وهو يعتذر إليه : ما أردت والله مساءتك ولو أردتها لقلت وفسر الماء بعد الجهد بالسبرتو . . . فهذا هو الخطأ ، أما تفسير الماء بعد الجهد بالماء فهو صحيح

قال النابغة : ولكنه تفسير مُفرط السقوط كتفسير المجانين ، فهو يقول إنى مجنون

قلت : كلا ، إن تفسير المجانين يكون على غير هذا الوجه

(١) روت الصحف فى هذه الأيام قصة حاكم انجليزى كان قد اقتنص ذئبا هنغاريا وشده فى سلسلة وجعله فى حديقة داره إلى أن يرى فيه رأيا . وكان للحاكم طفل صغير أعجبه الذئب ومنظره الوحشى فتربص إلى الليل ، فلما استقل أهله نوماً انسل من حجرته وهبط الحديقة وجاء إلى الذئب فوثب هذا يتحفز لافتراسه ؟ ولكن الطفل لم يدرك شيئا من معنى هذه الوحشية ، ولم يكن فى نفسه إلا أن الذئب كالكلب فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك . ومضى إلى الوحش مسروراً مطمئناً فتناوله من شعره وجعل يمسحه بيديه الصغيرتين ويعبث به ، والذئب مدهوش ذاهل ، ثم سكن واستأنس اليه كأنه مع جرو من أجرائه لا مع طفل آدمى . وجذبه الطفل من رقبته حتى أضجعه ثم اتخذه وسادة ووضع رأسه على ظهره ونام ... وافتقدت الطفل مربيته فلم تجده فى فراشه ، فنبهت أهله وذهبوا يبحثون عنه فى غرف الدار ثم نزلوا إلى الحديقة فبصروا به نائما ورأسه على الذئب . وخافوا إزعاج الوحش فرموه بالرصاص فقتلوه وقام الطفل يبكى على صديقه الوفى ...

هذا هو أثر الروح للطفلة الماشية على يقينها ، ولكن أين مثل هذا اليقين فى مثل هذه الحالة ؟ وكل مروضى الوحوش يعلمون أن أول وآخر ما يخيفونها به هو نزع الخوف من أنفسهم ، وان هذا هو وحده سلاح النفس فى النفس

١ ـ بعض مواطن الخفاء

في التاريخ الإسلامي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان الخفاء وما يزال مثار الفضول والروع، ومصدر الأساطير الغريبة الشائقة؛ وفي عصور ومواطن كثيرة كان الخفاء عماد دعوات وثورات سياسية واجتماعية خطيرة، وكان مبعث دول قوية قامت في ظروف غامضة، واستندت في قيامها إلى دعوات ومبادئ خفية؛ وكان هذا الخفاء نفسه مصدر قوتها وحياتها. وقد شغلت هذه الثورات والدعوات الخفية فراغاً كبيراً في التاريخ الإسلامي، وخصتها الرواية الإسلامية بكثير من التفصيل والجدل؛ وما زلنا نلمس آثارها حتى اليوم في بعض الطوائف والمجتمعات التي تلوذ في عقائدها وتقاليدها بكثير من الغموض والخفاء

وقد كانت قصة المهدي المنتظر بلا ريب من أشد مواطن الخفاء في التاريخ الإسلامي وكانت أخصبها مورداً للأساطير، وأحفلها بالدعوات والثورات الخفية؛ ويكفي أن هذه الأسطورة الغريبة كانت مبعثاً لطائفة من الدول القوية التي كان لها أكبر الأثر في سير التاريخ الإسلامي كما أنها كانت مصدراً لطائفة من الدعوات والمذاهب الدينية والاجتماعية التي شغلت مكاناً كبيراً في الكلام الإسلامي. كانت أسطورة المهدي عماد الدولة الفاطمية التي قامت في قفار المغرب الأوسط حول تلك الشخصية الخفية ـ شخصية المهدي المبعوث ـ وحول رسالتها وإمامتها؛ ثم افتتحت مصر والشام وبسطت سيادتها على قلب العالم الإسلامي فيما بين آسيا الصغرى والحرمين؛ وكانت عماد دولة الموحدين التي قامت في قفار المغرب الأقصى، وسادت بسائط المغرب والأندلس أكثر من قرن؛ وكانت عماد طائفة كبيرة من الثورات والفتن الدينية التي وقعت في مختلف العصور في أنحاء العالم الإسلامي. وكان الخفاء صفة ملازمة لأسطورة المهدي قبل البعث وبعده، يسبغ على القائم ودولته وخلفائه نوعاً من القداسة الروحية أو السمو فوق بني الإنسان

ومنذ عصر الإسلام الأول تتبوأ هذه الأسطورة مكانها في الكلام الإسلامي، وتقوم على عناصر الغموض والخفاء، فنرى من غلاة الشيعة من يقول إن علياً بن أبي طالب لم يمت، ولكنه حي غائب عن أعين الناس، مستقر في السحاب، صوته الرعد والبرق في سوطه؛ ونرى منهم من يقول مثل ذلك القول في ولده محمد بن الحنفية، وأنه مستقر في جبل رضوى من أعمال الحجاز [1]؛ ثم نرى الأسطورة تتخذ بعد ذلك صبغتها السياسية وتدعم بالأسانيد الكلامية والشروح التاريخية، ولكن مع اقترانها بصفة الخفاء دائماً. وخلاصة الأسطورة «أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من آل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويعيد مجد الإسلام ودولته ويسمى بالمهدي». أما هذا الإمام الخفي فمن هو؟ هو من ولد علي بن أبي طالب؛ ولكن يختلف الشيعة في مساق الإمامة أصولاً وفروعاً؛ وليس من موضوعنا أن نتعرض لهذا الجدل [2]؛ ولكننا نذكر فقط أن أشهر فرق الشيعة الامامية، وهم الاثنا عشرية، يقولون إن الثاني عشر من أئمتهم، وهو محمد بن الحسن العسكري، هو المهدي، وإنه لم يمت؛ ولكنه اختفى وغاب عن الأنظار، ولا يزال مختفياً إلى آخر الزمان، ثم يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً؛ وزاد بعض الدعاة على ذلك فحددوا لظهور المهدي تواريخ معينة، وكلهم يستتر لتأييد مزاعمه

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ص ١٦٥

(٢) راجع في هذا الموضوع ابن خلدون ـ المقدمة ص ٢٦٠ وما بعدها

كالذي حكاه الجاحظ قال: سمعت رجلا يقول لآخر: ضربنا الساعة زنديقاً. قال الآخر: وأي شيء الزنديق؟ قال الذي يقطع الزيقا. قال: وكيف علمت أنه يقطع الزيقا؟

قال رأيته يأكل التين بالخل ... ...

(التكملة في العدد الآتي)

(طنطا)

إلى «المضري»: أنا من زمن لا أقرأ شيئاً لهذا الزنديق الذي سميته في كتابك؛ وقد عرفته رجلا لو أيقن أن حبل المشنقة يرفعه مترين فقط في جو الشهرة لمد له عنقه ... فكل ما تقرؤه له من الطعن في العربية والعرب والإسلام، فانما نيته فيه أن يتناوله الكتاب ولو بالصفع إذا رن الصفع في العالم العربي ...... الرافعي

وراء الرموز والاشارات الغامضة ، مما يسبغ على دعوتهم دائماً لون السرية والخفاء

وكما كان الخفاء مبعث القداسة والخشوع قبل تحقيق الظفر السياسي ، فكذلك كان الخفاء بعد تحقيق هـذا الظفر مصدر القوة والنفوذ للدولة أو الأسرة التي تتشح بثوب الدعوة أو الامامة أو الرسالة ، ولنا أسطع مثل على ذلك في الدولتين ، الفاطمية والموحدية . بيد أن هنالك أمثلة عملية كثيرة للاعتصام بهذا الخفاء المروع ، وما كان يترتب على هذا الاعتصام من النتائج المادية والمعنوية المدهشة ؛ ويكفي أن تكون هذه الغمر الخفية مبعثا لأكثر من دعوة بالنبوة ، بل مبعثاً لدعوة الألوهية ذاتها ، وأن تقوم عليها عقائد ومذاهب كان لها أثر قوي في سير العالم الاسلامي وما زالت تمثل في عصرنا

— ٢ —

ويقدم لنا التاريخ الاسلامي أمثلة عمليـة مدهشة قوامها الخفاء المادي والروحي ؛ ومن الصعب أن نستوعب هذه الأمثلة أو أن نحصيها جميعا في هذا المقام المحدود ، ولكننا نقدم منها بعض أمثلة شهيرة

ففي أواخر القرن الثالث من الهجرة ظهرت دعوة القرامطة مستظلة بالدعوة الشيعية والاسماعيلية وقوامها التبشير بالمهدي المنتظر ؛ وظهر داعية القرامطة الأول الفرج بن عثمان القاشاني الملقب بذكرويه في جنوب العراق ، ولبث حيناً يبث دعوته سراً وخفية ؛ وتلاه تلميذه وصاحبه « قرمط » مؤسس المذهب الحقيقي يبث الدعوة جهرا ، ويدعو إلى امام من آل البيت هو المهدي الذي يظهر فيملأ الارض عـدلا ، فلما ذاع أمره قبض عليـــه عامل الكوفة وألقاه إلى ظلام السجن ، ولكنه استطاع أن يفر من سجنه في ظلام الليل بمساعدة جارية للحاكم ؛ وكان هذا الداعية الجريء يترك سر الخفاء وفعله في نفوس الكافة فاختفى على أثر فراره حـيناً ، وألقى في روع أنصاره أنه رفع الى السماء فازدادوا به فتنة ؛ ثم ظهر بعد ذلك وكأنه قد بعث ، ثم فر الى الشام ولم يوقف له على خبر بعد ذلك ، فكان هذا الاختفاء في ذاته عاملا في ذيوع الدعوة القرمطية واضطرامها

ورأى الفرج بن عثمان أو ذكرويه أن يخوض أيضـا غمر الخفاء ، ليحدث مثل الأثر الذي أحدثه اختفاء قرمط ، فنزح الى القفر وتوارى عن الأنظار في مكان ناء ، في منار أنشأه لذلك ، واستخلف أولاده للدعوة ، ولبث أعواماً طويلة يعمل ويدبر الخطط من وراء ستار ، ويوجه أكابر أنصاره وخاصته حتى اشتدت دعوة القرامطة وغدت خطراً حقيقياً على الجزيرة ؛ ثم خرج ذكرويه من كهفه ، وظهر بين أنصاره ، وسار غازياً إلى الشام ، والتقى هنـاك في ظاهر حمص بجند المكتفي ، فهزم القرامطة بعد قتال رائع ، وجرح ذكرويه وأسر ، وحمـل إلى بغداد حيث توفي من جراحه بعد أيام ، ومثل بجثته أشنع تمثيل (سنة ٢٩٤هـ) بيد أن ثورة القرامطة كانت قد اجتاحت يومئذ أنحاء البحرين ، واستقرت هنالك قوية منذرة ، واستمرت خطراً داهما على الشـام ومصر وأطراف الجزيرة حتى أواخر القرن الرابع [1]

— ٣ —

على أننا نجد أروع مثل للخفاء في الدولة الفاطمية ، في قيامها ، وفي وسائلها ، وفي خلفائها ؛ فقـد نشأت هذه الدولة القوية في قفار المغرب على يد دعاتها السريين وشيعتهم من القبائل البربرية المتعصبة الساذجة ، وكان أول خلفائها عبيد الله المهدي شخصية خفية غامضة لم يستطع التاريخ أن يقف على حقيقتها أو يتقصى نسبها ؛ واستمر هذا الخفاء يغمر شخصية الخلفاء الفاطميين ، وهذا الريب يغمر أصلهم ونسبهم ، حتى أننا نجد أشراف مصر يطلبون الى المعز لدين الله حين مقدمه إلى مصر أن يوقفهم على نسبه ، فيجمعهم في مجلس عام ويسل نصف سيفه ويقول لهم هذا نسبي ، ثم ينثر عليهم ذهباً ويقول لهم هـذا حسبي [2] ، ونجد خصوم الفاطميين ولا سيما بني العباس يتخذون هذا الريب في نسبهم مثاراً للطعن في امامتهم وفي ذممهم وعقائدهم مما لا يتسع المقام لبسطه ؛ بيد أن هناك حقيقة تلفت النظر ، هي أن الخلفاء الفاطميين ، ولاسيما الأوائل منهم كانوا يزعمون علم الغيب ومعرفة الخفاء [3] ، ومما يروى في ذلك أن العزيز بالله الفاطمي صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة مكتوب فيها

(١) راجع في دعوة القرامطة وغزواتها — ابن الأثير ج٧ ص١٤٧ و١٤٨ و١٦٨ و١٦٩ و١٧٢ و١٧٤ وابن خلدون ج ٤ ص ٨٥ — ٩٠ ؛ واتعاظ الحنفاء للمقريزي ص ١٣٠ وما بعدها ؛ وراجع كتابي تاريخ الجمعيات السرية ص ٣٣ — ٣٨

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٦

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠٠

بالظلم والجـور قد رضـينا ... وليس بالـكفر والحماقه
إن كنت قد أعطيت علم غيب ... فقل لنا كاتب البطاقه

وذلك إشارة إلى دعواهم علم الغيب ؛ وقد اتخـــذ تعلق الفاطميين بالخفاء واستظلالهم برموزه صورا واضحة لها أثرها القوى فى بناء الدولة الفاطمية وفى خططها ووسائلها ؛ بل كان هـــذا التعلق بالخفاء سياســة مقررة للخــلافة الفاطمية ؛ فنراها منذ استقرت بمصر تنظم مجالس الحـكمة الشهيرة فى القصر وفى الأزهر وتعنى بأن تكون هذه المجالس مبعثاً لتعاليمها المذهبية ؛ ثم نرى هذه المجالس يتسع نطاقها شيئاً فشيئاً وتغـدو ، جزءاً من نظم الدولة الروحية والاجتماعية ، ونراها تعقد للنساء والـكافة ، وينصب للأشراف عليها رجل من أكبر موظفى الدولة هو قاضى القضاة ، ويتسمى فى هذا المنصب « بداعى الدعاة » . وفى عهد الحاكم بأمر الله تتخذ الخطوة الأخيرة والحاسمة فى تنظيم مجالس الحـكمة ، وتنظيم الدعوة السرية الفاطمية بصورة رسمية وتنشأ دار الحـكمة الشهيرة ، لتستأثر بتنظيم الدعوة وبثها على يد نخبة من الدعاة والنقباء (سنة ٣٩٥ هـ)[1] ؛ وقد اتخذت دار الحـكمة منذ قيامها صبغة مذهبية واضحة قوامها بث الروح والمبادئ الدينية الفاطمية ، وكانت هذه مهمتها الظاهرة ؛ بيد أنها كانت تعمل فى الظـلام لغاية أخرى يغمرها الخفاء ، هى بث الدعوة السرية الفاطمية . ولا يتسع المقام للافاضة فى تفاصيل هذه الدعوة الغريبة ورسومها ، ولـكننا نقول فقط أنها كانت من أغرب الدعوات السرية المـذهبية ؛ وكانت موزعة على مراتب تسع يتدرج فيها الطلبة على يد الدعاة ، ويدفعون تباعا الى حظيرة التعاليم الفلسفية والالحادية ؛ ويبدأ الطالب فى جو من الايمان السيق ، ولـكنه لا يصل المرتبة السادسة أو السابعة حتى يكون قد انحدر إلى غمر الانكار المطبق ؛ ويبدو مما نقل الينا من تفاصيل هذه الدعوة الغريبة ومن موضوعات مراتبها ، أن الغاية الأخيرة التى كانت تعمل لها الدعوة السرية الفاطمية هى هدم كل اعتقاد وكل عقيدة دينية ، والانتقال بالطلبة والصحب الى حظيرة الالحاد المطبق والترفع عن العقائد الروحية العامة التى تؤكـد الدعوة أنها لم توضع الا للكافة ، ولا يلزم بها ذوو الأفهام الرفيعة

وقد استمرت هذه الجامعة الغريبة ، أعنى دار الحـكمة ، عصراً تبث العقائد والمبادئ الفاطمية ، الخفيـة والظاهرة ، وكانت جهودها السرية أخطر وأشد أثراً فى توجيـه الحركة الروحية فى مصر ؛ بيد أنها لم توفق إلى تحقيق الغاية التى عملت لها ، ولم تستطع أن تطبع المجتمع المصرى بطابع عميق من الدعوة التى كانت مبعثها ومستقرها ، وكانت جهودها بالعكس عاملا فى بث أسـباب السخط على تلك السياسة التى رسمت للاستئثار بتوجيـه العقائد وبث الانـكار والالحاد ؛ واضطرت الخلافة الفاطمية غير بعيد أن تعدل عن هـذا الاغراق فى بث العقائد المذهبيـة ، فتضاءلت أهمية دار الحـكمة ، ثم أغلقت بعد ذلك ؛ بيد أن هـذه الدعوة السرية ذاتها تمخضت كما سترى عن نتائج مدهشة سريعة الأثر

(للبحث بقية) - محمد عبد الله عنان

(١) راجع فى دار الحـكمة ونظمها ومراتبها : المقريزى (مصر) ج ٤ ص ٧١ و ٧٢ و ج ٢ ص ٢٢٦ وما بعدها وفيها تفاصيل الدعوة ومراتبها باسهاب

المتنبي في ديوانه

بمناسبة ذكراه الالفية

للأستاذ عبد الله كنون الحسني

اختلفت مذاهب الأدباء في المتنبي بين المدح والذم اختلافا شديداً منذ العصر الذي كان يحيا فيه إلى الآن ، وتقدمّ على وفاته عشرة قرون كاملة . وانك لتجد اليوم بعد هذه الأجيال الطويلة من يتكلم عن المتنبي بلسان الصاحب بن عباد خصمه العنيد الذي جعل وَكْده النيل من المتنبي وانكار فضائله بالحق أو الباطل ، ومن يدافع عنه ويتعصب له أكثر من ابن جني وأبي العلاء . ولقد كان حريا أن تضيع حقيقة المتنبي بين التفريط والافراط من الفريقين كما هو الشأن في كل ما يَتعاوَرُه هذان العاملان المختلفان ، ولكن المتنبي كان شخصية فذة تأبى إلا الاعلان عن نفسها والظهور بمظهرها الحقيقي مهما حالت الحوائل بينها وبين الناس

فالمتنبي لا يجهل أحد من المثقفين اليوم أنه من أكبر شعراء العربية إن لم يكن أكبرهم على الاطلاق . رفع من شأن الشعر العربي فأحله مرتبة لم تكن له من قبل ، بما نفى عنه من الزخارف اللفظية والأساليب التقليدية والأغراض السافلة ، وما نفخ فيه من روح العظمة والابتكار والسمو إلى الغايات البعيدة المنال . حتى انه إذا مدح شخصاً فان مدحه له يكون كالتلقين لمبدأ سام لا يجد الانسان مندوحة عن الاستجابة له من أعماق نفسه . ولا نستدل على ذلك بأكثر من مطلع هذه القصيدة التي يمدح بها سيف الدولة ، فان فيه وحده بلاغا لمن يتشكك في هذا القدر ، وهو قوله :

على قَدْرِ أهــلِ العزْمِ تأتى العزائمُ
وتأتى على قــدْرِ الــكِرَامِ المكارمُ
وتَـعْظُمُ في عَيْنِ الصَّغيرِ صغارُها
وتصغُرُ في عينِ العَظيمِ العَظائمُ

وكما يعرف الجمهور هذه الحقيقة من أمر المتنبي اليوم ، فانه كان يعرفها بالأمس وفي نفس عصر المتنبي . يدلنا على ذلك هذه العناية الكبيرة من الأدباء بشعره ؛ فمن شرح له ، إلى انتقاد ، إلى تقريظ ، إلى غير ذلك مما لم ينله شاعر قبله ولا بعده . وفي حياة المتنبي قال ابن العميد لأحد خلصائه : « انه والله ليغيظني أمر هــذا المتنبي واجتهادي في اخماد ذكراه ، فقد ورد على نيف وستون كتابا في التعزية ما منها الا وقد صدر بقوله :

طَوَى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ
فَـزِعْتُ منه بآمالي إلى الكذبِ
حتى إذا لم يَدَعْ لي صدقه أملاً
شَرِقت بالدمع حتى كاد يَشرَقُ بي

ولاحظ الأستاذ العقاد [1] عن المدة بين نظم القصيدة التي منها هــذان البيتان وموت أخت ابن العميد التي كانت التعزية فيها ، أنها لا تزيد كثيراً على سنة واحدة . فانظر كيف كان تَلقُّف الأدباء لآثار المتنبي وتلقيهم لها بالقبول ، برغم وجود كثير من المنافسين له والعاملين على اخماد ذكراه كما يعبر الرئيس ابن العميد !

فمقام المتنبي دائما أرفع من أن يتطاول اليه أحد ، وشأنه أكبر من أن يؤثر فيه مقال أهل الحسد . وما كثرت هذه التبعات لشعره فكثرت بسببها المؤاخذات التي يأخذها عليه خصومه ، إلا لأن نبوغه كان أكمل وأتم ، وعبقريته أجل وأعظم ؛ والناس منذ كانوا مولعون بالعظماء يتلمسون عيوبهم فيظهرونها ، ويتكشفون عوراتهم فلا يسترونها . على أن جل ما أخذ على المتنبي قد رده المحققون وبينوا أن الصواب ما ذهب اليه هو ؛ وبعض الباقي هو مما لم يخل منه كاتب ولا شاعر في القديم والحديث ، وأى صارم لا ينبو ؟ وأين الجواد الذي لا يكبو ؟

نعم ، هناك هَنات لا تزال لاصقة بالمتنبي فتزري بشخصه الكبير ؛ ولا زال البحث العلمي بعيداً عن أن يصل فيها إلى نتيجة حاسمة ، فنريد أن نأتي عليها ببصيص من نور التحقيق معتمدين في الكثير على شعر المتنبي الذي هو أصقل مرآة لنفسيته وأخلاقه . وسيكون اعتمادنا في الأكثر على نسخة خطية عتيقة من ديوانه توجد بالخزانة السلاوية . وهذه الهنات التي نقصد إلى الكلام فيها هي تنبؤه وعقيدته وأخلاقه

(١) المطالعات ص ١٣١

فأما تنبؤه فهو الزلة الكبرى التي تؤخذ على ذلك العقل الجبار ، وهو في الحقيقة أمر لو صح لكان ذريعة إلى اتهامه في سلامة الادراك . ولكن من المعروف أن المعرى كان يشك في صحة ذلك ، ويقول في هذا اللقب الذي غلب على أبي الطيب : إن اشتقاقه من النبوة أي الارتفاع ، لما كان من رفعه على الخلق ، لا من النبأ الذي منه اشتقاق النبيء . وهذا الخبر وحده كاف في نفي هذه التهمة عنه ، لا لتشكك المعرى فيها ، ولكن لما يتضمنه ذلك من إخفاء قضية التنبؤ وعلم شهرتها بين الخاصة فأبله بالعامة ، وإلا لما سأل ابن القارح أبا العلاء عن حقيقتها فأجابه أبو العلاء بذلك الجواب . وهذا على أن ما بين المتنبي وأبي العلاء من الزمن لايجاوز العقد الواحد من السنين . فكيف خفي هذا الأمر ودفن مع المتنبي حتى أن اثنين من كبار أدباء ذلك العصر لايجدان سبيلا إلى التوثق منه ، مع أن العادة في مثله إذا وقع ولو ممن هو أدنى من المتنبي مقاماً ، أن يشتهر ويتسامع فيتناقله الناس ولا يبقى أحد ليس عنده نبأ منه !

وأكثر من خبر المعرى دلالة على هذا المعنى ، خبر ابن جني الذي ذكر له أبو القاسم الشريف (الشريف الغرناطي) في شرح مقصورة حازم ، قال : « وحكى أبو الفتح ابن جني قال : سمعت أبا الطيب المتنبي يقول : إنما لقبت بالمتنبي لقولي :

أنا تِرْبُ الندَى وربُّ القوافي
وسمامُ العدَى وغيظُ الحسودِ
أنا في أمةٍ تداركها الله
غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ »

فهو لو كان تنبأ حقيقة لما جهل ذلك من أمره حتى يحتاج إلى البيان ، وإلا كان كالمتذر بأقبح من الزلة . وصفوة القول أن قضية تنبئه لم تثبت حتى في زمن حياته . وهي إن لم تكن من إشاعات خصومه الكاذبة فهي على الأرجح مما نُبز به لتشبيه نفسه بالأنبياء كما في البيتين السابقين والبيت الآخر الذي يقول فيه :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وننظر في ديوانه فلا نجد ما يدل على هذه القضية لا تصريحاً ولا تلويحاً إلا ما كان من أمر سجنه في صباه بسبب وشاية بعض الناس به إلى الوالي . فنقول ما هي هذه الوشاية ؟ أتراها مما له علاقة بهذا الأمر ؟ وتجيب نسختنا عن ذلك بما كتب فيها على القصيدة التي مدح بها الوالي فتقول :

« وكان قوم في صباه وشوا به إلى السلطان وتكذبوا عليه وقالوا له قد انقاد إليه خلق من العرب ، وقد عزم على أخذ بلدك ، حتى أوحشوه منه . فاعتقله وضيق عليه فقال يمدحه » . فالوشاية إذاً هي خروجه على السلطان لا ادعاؤه النبوة . واستمع إلى ما يقوله في استعطاف الوالي من تلك القصيدة :

أمالك رقي ومن شأنه هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلى وأوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل فها أنا في محفل من قرود

يريد المسجونين من اللصوص والجناة الخارجين على الطبقات السفلى الملوك .

تعجل فيَّ وجوب الحدود وحدّيَ قبل وجوب السجود

يريد أنه صغير لم تجب عليه الصلاة فكيف يجب عليه الحد ؟

وقيل عدوت على العالمين بين ولادي وبين القعود

يريد أنهم اتهموه بالعدوان على العالمين في حال الطفولة قبل أن يستطيع القعود . وليلاحظ القارئ نوع التهمة فهي منحصرة في الخروج ، ولو كانت ادعاء النبوة لما قال عدوت على العالمين :

فمالك تقبلُ زُورَ الكلام وقدرُ الشهادة قدرُ الشهود

يريد أن الشهود من سفلة الناس فشهادتهم مردودة لعدم تورعهم عن الكذب :

فلا تسمعنَّ من الكاذبين ولا تعبأنَّ بمحك اليهود
وكن فارقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلتُ بشأوٍ بعيد
وفي جود كفك ما جدت لي بنفسي ولو كنت أشقى ثمود

فهذا كلامه في حال صباه قبل أن يناصبه العداء أحد من النافسين له والحانقين عليه ، لم يتضمن شيئاً من الاشارة إلى دعوى النبوة ، ولا يمكن أن تفهم منه بحال . فلو كان قال هذه القصيدة في إبان شهرته وانتشار ذكره لقلنا إنه جمجم فيها وداري عن نفسه ، ولكنه كما علمت قالها في صباه ، وهي من أوائل شعره بلا نزاع في الاعتماد عليها وصحة الاستشهاد بها . بل نحن نسلم جدلاً انه أدعى النبوة وبسببها سجن ، فكيف يصح قوله حينئذ :

وكن فارقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأو بعيد ؟

وهل من يريد إدعاء النبوة متنبٍ بالفعل ؟ وهل هذه الارادة مما يمكن الاطلاع عليه قبل إظهارها حتى تتأتى الوشاية به ؟ وذلك بخلاف الخروج فان بوادره تظهر للناس قبل الاقدام عليه ، لأنه لا بد له من دعاوة كبيرة ، إذ أن الفرد لا يمكن أن يرفع وحده علم الثورة في وجه الدولة !

ومع تأكيدنا أن الذين وشوا به لم يتهموه إلا بالخروج ، لا نستبعد أنهم الذين لزوه بذلك اللقب المشنوء لما رأوا تعاليه عليهم وتقريعه لهم مع تشبيههم باليهود وتشبيه نفسه بالأنبياء كما في قوله :

ما مقامى بأرض نخـــلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وقوله :

فلا تسمعن من الكاذبين ولا تعبأن بمحك اليهود

بل اننا لا نكاد نميل عن هذا الرأى في سبب تلقيبه بالتنبى حتى تقوم الحجة ، والحجة القاطعة على خلافه . وأما أقوال خصومه في ذلك فمجرد ادكار قوله انه سهام العدا وغيظ الحسود تضعف وتضمحل حتى لا يبقى لها اعتبار ما

* * *

وأما عقيدته فهى مما كثر كلام الناس فيه ؛ ولسوء حظ المتنبى لم يتناولها إلا منتقد ، وليس هناك معتقد فيما نعلم تولى رد مارمى به من الزيغ والالحاد . فنحن نبين مايعتمد إليه متهموه فيها ونعقب عليه بما يلوح لنا من ذلك صحيحاً أو باطلا . غير أنه لابد من القول أن مثل المتنبى في أدبه وشعره وروحه الفلسفية لا يطمع منه أن يكون متديناً خالصاً إلى حد التبتل والانقطاع للعبادة ومحاسبة نفسه على الخطرات وحبس لسانه عن فضول الكلام ، فان التدين بهذه الصفة مما لا يكاد يفهمه إخوانه من الشعراء وأهل الأدب على وجه العموم . وقديماً مثلوا برقة إيمان الأدباء ، فكيف نريد من المتنبى أن يتستر على جمهورهم ويقدم لنا من نفسه «أويسا» في ثوب شاعر ، أو شاعراً في ثوب «أويس» ؟

ولئن قال على بن حمزة عن المتنبى إنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن فلقد قال عنه إنه ما كذب ولا زنا ولا لاط . وهـذه إن لم تقم بتلك فان تلك لا اعتداد بها مع هذه . وهل كان الشعراء الذين لم يتنزهوا عن الكذب والزنا واللواط يصومون ويصلون ويقرأون القرآن ؟

وبهذا تعلم أن عدوان الخصومة على المتنبى قد ستر من محاسنه ما لو ظهر لكان له في النفوس مكان أسمى مما له فيها الآن

ولأقص على سمعك بعد هذه المقدمة بعض الأبيات التى يُزَنُّ بسببها بضعف العقيدة . قال يمدح بدر بن عمار :

تَتَقاصَرُ الأوهامُ عن إدراكه مِثلُ الذى الأفلاكُ فيه والدُّنى

فقالوا : لقد أفرط جداً لأنه شبه ممدوحه بالحق سبحانه وتعالى ، لأن الذى فيه الأفلاك والدنى هو علمه عزّ وجل . ونقول إن هذا تعسف ظاهر ، فمن الذى نقل عنه أنه يريد ما ذكرتم ؟ وماذا حسّن في بلاغتكم ؟ التعبير عن علم الله بالذى الأفلاك فيه والدنى حتى رجحتموه على أن يكون المراد به هـذا الفضاء الواسع الذى يحتوى الأفلاك والدنى حقيقة ممتـداً وراء الآفاق التى تتقاصر عن إدراكها العقول ؟

وقال المتنبى :

أنا مُبصرٌ وأظن أنى نائمٌ من كان يحلم بالإلـه فأحلما ؟

فقالوا : هذه مبالغة مذمومة وإفراط وتجاوز حد، ثم هو غالط في إنكار رؤية الله تعالى في النوم فان الأخبار قد تواترت بذلك . ونقول : إن للبيت رواية أخرى وهى الأشهر هكذا :

من كان يحلم ما يراه فأحلما ، وهى كذلك في نسختنا ، والمعنى عليها أظهر من الأولى فلا يبعد أن تكون تحريفاً

« البقية في العدد القادم » (طنجة) عبد الله كنون الحسنى

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

يكتشف مكروب السل

— ٦ —

إن بشلات الجمرة بشلات في المكروبات كبيرة يسهل الكشف عنها إنما هي قورنت بمكروب السل ، ذلك المكروب القتال الخداع . ومكروب الجمرة يكثر في أجسام الحيوان قبيل موته كثرة هائلة ، فلا يخطئه البصر ولو لم يكن حديدا ؛ أما مكروب السل — ولم يكن كوخ على يقين من وجود مكروب له — فقد طلبه الطالبون وتقفاه الباحثون ولكن بغير جدوى . ولو أن لوڤن هوك نفسه ، وهو أحد البحاث عيناً ، نظر في مائة رئة مريضة ، ثم نظر ، ثم أعاد النظر ، ما خرج من نظراته الحديدة الكثيرة على شيء . ولو أن اسپلانزاني حاول ما حاول لوقن لعجزت مجاهره عن ابلاغه تلك الغاية . أما بستور ، وهو الباحث القدير ، فلم تكن طرائقه من الدقة بحيث ترفع الغطاء عن هذا الفاتك النادر . أو لعل صبره كان ينفد دون أن يحقق شيئاً

ولم يكن يعرف قبل كوخ من داء السل شيء كثير ، فكل ما عرف عنه أنه داء تنقله مكروبات ، وذلك لأمكان نقله من حيوان سقيم الى آخر سليم . سبق الى هذا الدليل عالم شيخ اسمه ڤلمان Villemin ، وحققه من بعده كون هايم Cohnheim أستاذ برسلاوة الكبير ، فاستطاع أن ينقل داء السل الى الأرانب ، إذ أخذ فتيتة من رئة مسلولة فأدخلها في الخزانة الأمامية لعين أرنب ، فأخذت أنسجة العين تتدرن ، وأخذ الدرن يتمدد ينذر الموت . وظل طالبنا القدير يرقب حوادث هذه التجربة البديعة من خلال أغشية العين الشفافة فكأنما يرقب دورا على مسرح يلعب من وراء زجاج

كان كوخ قد اطلع على تجربة كون هايم ، ودرسها درساً طيباً . قال :

« ليس في المقدور أن أجرب تجارب السل في آدمي ، وقد أمكن الآن نقل هذا الداء الى الحيوان ، فهناك بالنفس فرصة غالية لدراسته ، لكشف مكروبه ، فلا بد من مكروب ينشأ عنه هذا الداء . . . . »

وبدأ كوخ عمله ، وكان لا يعمل إلا على خطة يرسمها ، وكانت خططه قاسية لا صلة لها بعاطفة بني الانسان ، ولا تمت بسبب الى حنان القلوب . وأجراها ببرود قلب لو اطلعت عليه في تقاريره عنها لاقشعررت بدنك منها . وحصل على مادة سله الأولى من عامل يعمل في الأرض ؛ وكان رجلا قوي البنية ، مفتول العضل شديدا ، وكان عمره ستة وثلاثين عاماً ، وكان منذ ثلاثة أسابيع في صحة هي الغاية مما يرجوه انسان ، فلم يلبث أن جاءته سعلة باغتة ، واخترقت صدره آلام فاجئة ، نفذت منه نفوذ السهام . وأخذ جسمه في الهزال السريع حتى أصبح كأنه الشمعة احترت فأخذت تسيح . ودخل المستشفى ولم تظله سقفه أربعة أيام حتى صعدت روحه الى السماء ، وتخلف جسمه حيث هو من سريره ، وقد عمه الدرن وتنقط كل عضو فيه بتلك الحبيبات الغبراء الصفراء كأنها الفلفل بعثره مبعثر فيها

بدأ كوخ عمله في هذه المادة الخطيرة وحيدا ، فمساعداه كانا قد افترقا عنه ، أما لفلار فأخذ يتقفى مكروب الدفتريا ، وأما جفكي فكان ينقب عن مكروب التيفود . بدأ كوخ العمل وحده ، فجمع الدرن الأصفر من جثة العامل المنكود بين مشرطين أحماها في النار ، ثم سحق الدرن ، ثم حقن سحيقه بلطف في عيون طائفة من الأرانب ، وحقن منه تحت جلود طائفة أخرى من الخنازير الغينية ، ووضع الأرانب والخنازير في أقفاص نظيفة ، وأخذ يعني بها ويلاطفها ويداعبها مداعبة الأم الرؤوم ؛ وبينما هو ينتظر انبعاث السل فيها ملأ وقته بالنظر بأقوى مجهر في الأنسجة المريضة التي خلفها العامل المسكين

نظر ثم نظر ، ثم داوم النظر أياما بمجهر يكبر الأشياء مئات

المرات ، فلم يكشف بصره شيئاً إلا الحطام الذى تخلف من كبد تهدّمت أو رئة تخرّبت . قال كوخ : « إن يكن للسل مكروب فلا بد أنه يداورنى ويغالبنى حتى يفلت من عينى فان أستطيع بعد الآن رؤيته وهو حيث هو من أنسجته ، فلا حيلة إلاّ أن أصبغ هذه الأنسجة بصبغة شديدة ، فلعله يتراءى من بعد ذلك فيها . . . »

ومضى اليوم تلو اليوم ، وكوخ قائم قاعد فى صبغ الدرن الذى جمعه ، يصبغه بالأسمر والأزرق والبنفسجى والأحمر ، وبكل لون من ألوان الطيف استطاعه . كان ينشره على شريحة من الزجاج نظيفة ، ثم يغمرها بما عليها فى محلول صبغة قوية زرقاء ، ويدعها الساعات فيها ، ثم يعود الى شريحة ثانية ويصنع بها ما صنع بالأولى ، فيغمرها فى صبغة أخرى ، ثم يعاود ثالثة ورابعة ، وكلما مست يداه شيئاً مستراباً غمسهما فى محلول مطهر من السليمانى[1] حتى تقشّف جلدها واسود

وأصبح صباح يوم ، فقام كوخ الى شرائحه الزجاجية فأخرجها من محلول الصبغات التى كانت بها ، ووضعها واحدة بعد أخرى تحت مجهره ، وأخذ يُبَوِّره[2] عليها ، فأخذ مجال بصره يتضح رويداً رويداً حتى خرج له من الماء الأغبر صورةٌ جلية بينة ، واذا عينه ترى بين خلايا الرئة التى تقوّضت من الداء مجموعاتٍ غريبة من بُشَيلاّت صغيرة كالعصىّ زرقاء ، ودقّت فى بصره فلم يستطع تقدير سمكها ، أما طولها فأقل من جزء من خمسة عشر ألف جزء من البوصة الواحدة

قال كوخ : « ما أجملها بُشيلاّت ! إن بها انحناء قليلاً والتواء ، فهى ليست فى استقامة مكروب الجمرة ، وهاك أسراباً منها اجتمعت واكتنزت كأنها حُزَم السجائر ، وهاك بُشيلّة عفريتة دخلت وحدها خلية من خلايا الرئة المتأكلة ... أحقاً هذا مكروب السل وقعتُ عليه هكذا سريعاً ؟ »

وواصل كوخ عمله بدقته المعهودة ، فظل يصبغ الدرن يستخرجه من كل ناحية من نواحى جثة العامل ، وحيثما صبغ أرته صبغته الزرقاء تلك البُشيلاّت الدقيقة الحنواء ؛ تلك الخلائق الغريبة الجديدة وقد اختلفت عن كل ما كان رآه فى أجسام ألوف الحيوان والانسان سليمه وسقيمه

ولم يلبث فيما هو فيه طويلا حتى بدأت الفاجعة المحزنة تقع فى الخنازير الغينية والأرانب . أخذت هذه الخنازير يتزاحم بعضها لِصق بعض فى أركان القفص فى كآبة بيّنة ، وانتفش فروها ، وأجسامها الصغيرة التى دأبت بالأمس على الوثب واللعب ، أخذت تهزل ويذوب عنها ما كساها من اللحم والشحم فصارت كأنها العظم حوته صُرّة من جلدها . ولزمتها الحمى فهمدت وتخاذلت عن طعامها من الجزر الطيب قد زها لونه ، والحشيش الطازج قد فاح شذاه . ثم أخذت تموت واحداً فواحداً ، وكلما مات واحد منها ارواء لغُلة عالمنا من البحث ، وافتداء لسلامة الانسان ، قام صاحبنا اليه فدبّسه على لوحة تشريحه ، وبلّل جلده بمحلول السليمانى ثم أخذ مشارطه فطهرها ثم شق جثة الخنزير وشرّحها فى دقة زائدة وعناية بالغة سكنت لها أنفاسه مخافة الزلل

وفى بطون هذه الضحايا ، التى جهلت بما ضُحّت ، وجد كوخ نفس ذلك الدرن الأصفر الأرمد المرعب الذى امتلأت به جثة العامل . فقام يبسطه على لوائح زجاجه الذى لا يفنى ، ثم يغمره فى صبغته الزرقاء ، وفى كل حالة وبكل جسم كشفت له الصبغة عن نفس تلك العصىّ الحدباء التى أرته اياها أول مرّة فى رئة ذلك العامل

فدعا عَوْنيه الأقدمَين ـ لُفلار الشغّال ، وجَفْكى المخلص ـ فتركا ما هما فيه من مكروبات أخرى يبحثانها ، فلما جاءاه أراهما ما وجد . قال : « انظرا كلاكما ، فانى وضعت فى هذا الحيوان منذ ستة أسابيع فُتَيْتَة صغيرة من الورق لا يتجاوز ما فيها مائة من هذه البَشيلاّت ، وها هى اليوم قد تكاثرت فيه فبلغت البلايين . أى مخلوقات هذه ! فلقد انتشرت من حيث حُقنت فى فخذ هذا الغينىّ الى كل أجزاء جسمه ، فنفذت كالأرضة الى أقاصيه ، واخترقت جوانب الشرايين . . . وحملها الدم الى عظامه ... وحملها الى أبعد زاوية فى مخه .... »

وذهب الى مستشفيات برلين ، كائنة حيثما كانت ، يستجدى منها جثث الموتى رجالا ونساء من صرعى السل ، وأخذ يقضى أيامه وحيداً مستوحشاً بين هذه الجثة حيث هى من بيوتها ، ويقضى

---

(١) هو كلورور الزئبق ، ويتركب من ذرتين من الكلورور وذرة من الزئبق ، وهو سام

(٢) يرفع المجهر أو يخفضه حتى يقع الشىء المنظور فى بؤرة المجهر ، وعندئذ فقط تتراءى صورته واضحة

أصدقاءه عند مكرسكوبه في معمله ، وهو ساكن كالقبر إلا من أصوات خنازيره الغينية وحركاتها ، واستخرج من أجساد الموتى أنسجتها المريضة فحقن منها في مئات من هذه الخنازير ، وفي كثير من الأرانب ، وفي ثلاثة كلاب ، واثنتي عشرة حمامة ، وثلاث عشرة قطة خدّاشة ، وعشر دجاجات دفّاقة توّاقة ! ولم يقف من جنونه الى هذا الحد من حقن هذا العدد الكبير من الحيوانات ، بل انه حقن هذه المادة الجُبْنيّة القاتلة في أنواع عدة من الجرذان والفئران أبيضها وأرمدها ، وما يرتاد الجبال منها ، وما يرتاد الحقول . بلغت دقة كوخ في صيد المكروب حداً لم يبلغه سائد قبله

وتفكر كوخ لمّا أجهده الحذر قال : « يا لله من عمل يَهُزّ الأعصاب هزّاً » . قال هذا وقد خال ما كان حاله لو أن تغلب هذه المرة امتد كالبرق الى مِحْقنه فارتشق في جلده بمكروبه القتّال ! لم يكن كوخ برغم هدوئه ووحدته وانفراده في محاربة هذه الأعداء الخفيّة خلواً من هزّات الحياة وانفعالاتها ، إلا أنها لم تكن انفعالات من التي تنعش وتسر ، ولكن من تلك التي تنذر بالفواجع والمآسي

وصمد صاحبنا للمأساة المنذرة فلم تزلّ يده أبداً ، وإنما ازدادت على الأيام جفافاً وتجمّداً واسوداداً لغمسه إياها في محلول السلماني ، هذا المحلول الطيب الذي وجد بحّاث المكروب في تلك الأيام أُسّتهم فيه ، فغمروا به كل شيء حتى أجسامهم . وتتالت الأسابيع وكوخ بين مُواء القطط وقَيْق الدجاج ونُباح الكلاب ، وبَشيلّته الخنواء تتكاثر تكاثراً سريعاً قاسياً نظيماً في هذه الحيوانات ، ثم أخذت هذه الحيوانات تتساقط واحدة بعد أخرى ، وتعجّلها الموتُ فازدحمت بين يدي كوخ ، فاشتغل من يومه ثماني عشرة ساعة قضاها في شق جثثها وتفحّص ما بها ، ثم في امتحان ما وجد فيها تحت المكرسكوب بعينه المعشاه

قال كوخ لتلميذيه الأقدمَيْن لُفْلار وجَفْكي : « إني لا أجد هذه العصيّ الزرقاء إلا في الرجُل أو في الحيوان المسلولين . ولقد نظرت كما تعلمون في مئات من الحيوانات الصحيحة فلم أجد لهذه العصيّ أثراً »

فقال صاحباه : « ومعنى هذا يا سيدنا الدكتور أنك وجدت البَشيلّة التي هي أصل هذا الداء »

فيقول كوخ : « لا . لا . الساعة لم يتم الأمر ... إن الذي أتيته قد يقنع بستور ، أما أنا فلم أقتنع بعد ، فلا بد لي من استخراج هذه البَشيلّات من أجسام هذه الميْتات ، ولا بد لي بعد ذلك من زرعها في قالوذج حساء اللحم الذي كنا اصطنعناه ...

« لا بد من الحصول على زُرَيعات خالصة من هذه البَشيلّات ، ثم لا بد من توليدها نسلاً من بعد نسل عدّة أشهر ، بعيدة عن كل مخلوق حيّ . ثم بعد ذلك أحقن النسل الأخير الخالص في حيوانات سليمة ، فاذا جاءها السل . . . . » وعندئذ انبسطت أسارير كوخ وعلت فمه ابتسامة قصيرة . وعاد لُفلار وجَفْكي إلى أبحاثهما ، وفي قلبيهما روعة المعجب وخَجْلة المتسرّع الذي يجني النتائج فجة غيرَ ناضجة

ورسم كوخ في رأسه كل الصور الممكنة لزرع هذا المكروب وبدأ يزرعه على قالوذج حساء البقر . وصنع عشرات من مختلف الأحسية ، وصبها في أنابيبه وقنّيناته ووضعها في درجات من الحرارة مختلفة ؛ فبعضها في درجة غرفته ، وبعضها في درجة حرارة جسم الانسان السليم ، وبعضها الآخر في درجة حرارة الانسان المحموم . وأتى ببشلّاته من رئات خنازير غينية فجاءت خالصة من كل مكروب ضالّ يخشى منه أن يكاثرها وهي دقيقة فيسد عليها مسالكها . وزرع هذه البشلات النقية في مئات الأنابيب والقنّاني ، ولكنه خرج من كل هذا — بالخيبة ! فهذه البشلات الحقاق التي تتكاثر في أجسام حيواناته تكاثراً سريعاً ذريعاً ، هذه البشلّات التي تناسلت في أجسام المرضى من بني الانسان حتى بلغت الملايين ، هذه البشلات رفعت أنوفها — على فرض أن لها أنوفاً — عن طعام كوخ اشمئزازاً من أحسائه وقوالبذه

وذات يوم خطر لكوخ خاطر في سبب إخفاقه قال : « إن بشلات السل لا تنمو إلا في أجسام حيّة ، فلعلها إذن تتطفل على هذه الأجسام ، وعليّ إذن أن أجهّز لها طعاماً أقرب ما يكون إلى مادة جسم الحيوان »

هكذا اكتشف كوخ طعامه الشهير — قالوذ [1] مصل الدم — اكتشفه طعاماً لكل مكروب أرستقراطيّ مُترفٍ يعاف طعام السُّوقة من المكروبات ، وذهب إلى القصّابين وجاء منهم بدم

(١) القالوذ والقالوذج سيان

طازج من أبقار قُتِلت لوقتها، فلما انجمد وتجبّن، شقّقه، فسال منه عصير زلالٌ يضرب إلى صُفرة التبن. ثم سخّن هذا المصل بمقدار يقتل ما سقط فيه من مكروبات الهواء الضالة، ثم صبّه على حذر في عشرات من أنابيب اختبار ضيّقة، أمالها في مواضعها إمالة كبيرة ليتسع سطح المصل الذي بها، فعلى هذا السطح سيبسط مادة المكروب. ثم سخن الأنابيب وهي على ميلانها تسخيناً يكفي لانعقاد مصلها وتحوّله إلى مزاج قالوذيّ جامد جميل في رونقه.

ومات في صباح هذا الغد خنزير غينيّ خرّمه السل تخريماً، فشرّحه واستخرج منه درنة أو درنتين، نشرهما بعود من البلاتين على سطح قالوذ المصل وهو نديّ، وانتقل من أنبوبة إلى أخرى حتى لقّح الجميع. ثم استنشق نفساً كبيراً، ثم زفر زفرة طويلة فكأنما نفض فيها الهم الذي ملأه في هذه العملية الدقيقة وقد نجحت بعد خشية الزلل، وقام كوخ فأخذ الأنابيب فوضعها في مدفأ درجة حرارته تعدل تماماً تلك التي في جسم الخنزير الغينيّ

ومضت أيام ذهب كوخ فيها كل صباح إلى هذا المَفرخ الدافئ، ورفع أنابيبه إلى نظارته في إطارها الذهبي، وحدّق فيها وحمْلَق، ولكنه لم ير شيئاً. قال كوخ: « هذه خيبة أخرى! كل المكروبات التي زرعتها تكاثرت في يومين، وهذا هو اليوم الرابع عشر، فما لهذا المكروب التعس لا يتكاثر أبداً... »

لو أن رجلاً غير كوخ صادف ما صادفه من الخيبات لكبّ أنابيبه وسكب مصله، ورجع عما قصد إليه. أما كوخ، طبيب القرية الأشوع، فله شيطان يحفزه ويغريه، فقام عندئذ يوسوس إليه من وراء عاتقه: « صبراً سيدي صبراً. أنسيت أن جرثومة السل بطيئة تستغرق في قتل الرجال الأشهر والسنين. فلعلها إذن بطيئة كذلك في تكاثرها في مصل أنابيبك ». فاستمع كوخ لشيطانه، فلم يَرْمِ بأنابيبه وأمصاله، واستمهلها لليوم الخامس عشر. فلما كان صباحه نزل إلى مَفرخه فوجد القالوذج المصل قد تبعثرت على سطحه الناعم حبات صغيرة لامعة. فمدّ كوخ يده في لهفة إلى جيبه يستخرج منه عدسته وألصقها بعينه وأخذ يحدّق في الأنابيب أنبوبة أنبوبة، فلما كبرت هذه الحبّات في عينه تراءت قشوراً جافة صغيرة

فأمسك كوخ وهو ذاهل بإحدى الأنبوبات، فنزع عنها سداد القطن الذي يسدّها، ووضع فاها وهو غائب الفكر في اللهب الأزرق لمصباح بنسن Bunsen ليعقّمه، وأدخل فيها عوداً من البلاتين فلقط على طرفه حبّة من تلك الحبات التي ظهرت على القالوذج المصل، وهو يكاد يوقن أنها مكروبات. فوضعها تحت مكرسكوبه، وهو لا يكاد يدري ما وضع، ونظر فعلم أن البحث تجري طريقه شاقةً في صحراء لقّاحة جرداء، لا زرع فيها ولا ماء، ولكن السافر فيها يأتي الفينة بعد الفينة على واحة ظلها وارف، ونبعها بارد، وثمرها وفير مستطاب، نظر فعلم أنه هبط بعد الجهد والجلد على واحة من تلك الواحات. أفليست ملايين المكروبات هذه التي تكشف لبصره الآن هي عينها تلك البشلات الحنواء التي رآها في رئة ذلك العامل المسلول زماناً مضى، وتراءت له لا حراك بها، ولكنها حية بدليل تكاثرها، وتراءت له دقيقة صغيرة، رقيقة المزاج، أنيقة الطعم، سريعة الرغبة عما لا ترضاه منه، ولكنها مع هذا كبيرة النهم شديدة الفتك مخرّبة هدّامة، أكثر تخريباً من غُزاة التتر، وآكد في الموت من الحيات والأفاعي

(يتبع) أحمد زكي

أبو الطيب المتنبي
شاعر الأدب القوى

بمناسبة ذكراه الألفية

مهداة إلى الأستاذ الكبير أحمد أمين

بقلم السيد كامل حريري

فى مثل هذا اليوم منذ ألف سنة خلت ، فقدت آلهة الشعر والبيان رسولها الأمين ونبيها المظلم أبا الطيب أحمد المتنبي ، بعد إذ أدى رسالتها ونشر دعوتها أربعين عاماً لا تأخذه كلالة ولا تتكاءده ملالة ، وأنبياء البيان كأنبياء الأديان شديد عنتهم كثير اضطهادهم صعبة دعوتهم ، وهم مع ذاكرى رسالتهم فى بلاء وجهد ما أنزلت عليهم آلهة الشعر رائع آياتها وخالد أبياتها ، وما بى عرض رسالة المتنبي وما كان يلقى بسببها من كفر العبقرية وجحود الفضل ونكران العظمة ، فكل أحس ذلك فى شعر شوقى ورسالته ، وإن ما أخذت نفسى به هو ذكر أبي الطيب الفيلسوف المهذب ، « كورنى » العرب فى القرن الرابع ؛ وأنا إذ أقول هذا لا أقصد إلى قول الفيلسوف الشاعر أبى العلاء المعرى : « إنما أبو تمام وأبو الطيب حكيمان والشاعر البحترى » بل أعنى ناحية خطيرة فى شعر المتنبي هى وحدها سر خلوده وعظمته وبقاء شعره على الزمن

وما الدهر إلا من رواة قصائدى
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مردداً وغنى به من لا يغنى مغردا

ولكن هذا يقتضيني ذكر القرن الرابع الهجرى ، وقد تهاوى بناء الدولة العباسية ، ورثّ حبل العروبة ، وفشت فاشيةُ ملوك الطوائف فى البلاد العربية الاسلامية ؛ فآل بويه وبنو حمدان فى العراق وفارس والشام ، ودولة الأخشيديين وبنو رائق فى مصر وفلسطين يتواثب بعض على بعض ، وإن الفساد والرذيلة لسوقاً رائجة ، وإن الخيانة والنفاق لبضاعة نافقة ؛ أما عن الأخلاق الواهية والعزائم الوانية والمروءات الساقطة فحدث ولا إثم

فهموى ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام

ذلكم القرن الرابع الذى ولد فيه نفر الشعراء أبو الطيب المتنبي قد عرضته عليك بعجره وبجره وخيره وشره . لأن للعصر أثراً بيناً فيما ينظم الشاعر ويكتب الأديب ، وهو عصر ما أخلقه بشاعر كالمتنبي ينشر بين أهله الضعفاء فرقان القوة ورسالة المجد والمثل الأعلى

وكما ابتعث « جوبيتير » اله الحرب والقوة نيتشه فيلسوفا يوقظ بأنجيله همم الألمان الراقدة وعزائمهم الخامدة ويلقنهم آيات تنازع البقاء وبقاء القوى الغالب ، ابتعث المتنبي قبله بثمانية عصور الى الأمم الأسلامية يقول :

فالموت أعذر لى والصبر أجمل بى والبرُّ أوسع والدنيا لمن غلبا

تطاول العهدُ بالجاهلية الأولى ، فنسى الشعراء نغمة التفاخر بالمديد ، والتكاثر بالوليد ، والاعتداد بالقوة ، والاعتزاز بالمنعة ، والتفاضل بمنع الجار وحفظ العشيرة ، فأصبحوا وقد رقت حاشية الحياة ، ولانت أعطاف العيش ، تشوقهم اللذة ، وتروقهم الترف ، ويستعبدهم الهوى ، وتتصباهم الطريقة النواسية ، فما منهم إلا عاشق مفتون ، وقيس بليلاه مجنون ، وما فيهم إلا نضو ردف ثقيل ، وخصر نحيل ، وطرف سقيم ، وثغر نظيم ؛ ومن لا يحب الخصور والنحور والقواحظ والثغور إذا كن مما يشتهى ويستملح !

طغى سيل الأدب اللين بنوعيه الشعر والنثر على الحياة الاسلامية العربية فى القرن الثالث والرابع حتى ماتت الأخلاق الصلبة البدوية ، وذابت الرجولة القاسية الجاهلية ، وتفككت الفضائل من رابطها الوثيقة ، وتحللت الأخلاق من أزمتها المتينة ، وسرى داء الضعف والتخنث فى نفوس الشيوخ والشبان بله الكواعب والغلمان . فكان من ذلك جيل مترف متنعم ، مسخت الحضارة رجولته ، وألان الترف شكيمته ، وأماتت النعمة طموحه . فما تتراقى إلى مجد له همةٌ ، ولا تتسامى إلى مثل أعلى له عزمةٌ ، وما جنى على هذا الجيل ما جنى إلا شعراؤه الخليعون الماجنون وفى طليعتهم بشار وأبو نواس . فان من يقول :

ولو أن مالى يستقل بلذتى
لأنسيتُ أهل الموكسرى وقيصرا

لا يبشر إلا بجيل خائر ضعيف كهذا الجيل الذي ولد فيه المتنبي . ومالنا لا نقول في صراحة وصدق ، إن الأدب القوي في غير عنف ، الشديد في غير عسف ، ظل يتيماً بعد الفرزدق وجرير حتى جاء أبو الطيب فرأب الصدع ، وسدّ الثأى وحمل الراية ؛ ثم فتح للشعراء طرائق الخلد ، وسنّ لهم سنن المجد ؟

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الرجال وأن ترى
لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما
تداول سمع المرء أنمله العشر

أنا لا أريد لهذا النشء المتفكك من شبابنا « الشيك » أن يقحم نفسه الحرب ، ويحملها الطعن والضرب ، كي ينشأ شجاع النفس شديد البطش منيع الجانب عظيم الرجولة ، ولكني أنصحه بقراءة ديوان المتنبي شاعر القوة والبطش والرجولة الحق ، وأنا زعيم له بعد ذلك بما يتطلبه من رجولة وإقدام

ولو أن الحياة تبقى لحي
لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تموت جبانا

أما أنتم أيها الذين أضلهم المجد وقعدت بهم الهمة عن طلب العلا ، فاستوطأوا مهاد الضعة ، وأساغوا صاب الذل ، ورضوا بخطة الخسف ، فاليكم أتوجه ببيتي شاعر المجد والعظمة

إذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير
كطعم الموت في أمر عظيم

وبعد : فان في ديوان المتنبي جبهة حربية تعلم شبابنا الشجاعة والقتال ، ومدرسة اسبارطية تنشئ أطفالنا على احتمال الشدائد والأهوال ، وجامعة فلسفية توحي إلى رجالنا جلائل الأعمال . فلنمجد شاعر الأدب القوي الذي يدعو إليه نيتشه في عصره ، والأستاذ أحمد أمين في عصرنا ، والذي توجبه حالنا الاجتماعية والخلقية ، وتفرضه سنة البقاء على الناس

وليحن قراء « الرسالة » مني رؤوسهم خشوعاً وإجلالاً لنبي الشعر ، وفارس الدهر ، وملء أذن السمر ، وعبقري لو تقدم به الزمن في عهد الاغريق لخلده هومير مع الأبطال وسما به إلى سماء الآلهة ! ولا عجب وأبو الطيب القائل عن نفسه :

وقت يضيع وعمر ليت مدته
في غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرهم وأتيناه على الهرم

(حلب) كمال مهري

أندلسيات :

٤ ـ قصة الفتح بن خاقان

للاستاذ عبد الرحمن البرقوقى

تتمـــة

تواليف الفتح وشيء من منظومه ومنثوره

الشائع المعروف أن ليس للفتح بن خاقان غير قلائد العقيان، ومطمح الأنفس، ولكن يجب أن يلحظ أن المطمح نسختان صغيرة وكبيرة؛ وقال ابن خلكان إن المطمح ثلاث نسخ صغرى ووسطى وكبرى. وللفتح غير قلائد العقيان والمطمح كتاب اسمه بداية المحاسن وغاية المحاسن، ذكر ذلك المقرى وقال إن له أيضاً مجموعا فى ترسيله وتأليفا صغيراً فى ترجمة ابن السيد البطليوسى نحو الثلاثة كراريس على منهاج القلائد . . . ولمناسبة ذكر ابن السيد البطليوسى الأندلسى الأديب الكبير وصاحب شرح أدب الكاتب لابن قتيبة نقول: إنه كان بينه وبين الفتح علقة ومودة، ومن ثم قرّظ ابن السيد كتاب القلائد بهذه الرقعة التى أرسلها إلى الفتح، قال: «تأملت ـ فسح الله لسيدى وولي فى أمد بقائه ـ كتابه الذى شرع فى إنشائه، فرأيت كتابا سينجد ويغور، ويبلغ حيث لا تبلغ البدور، وتبين به القرى والمناسم، وتغتدى له غرر فى أوجهٍ ومواسم، فقد أسجد الله الكلام لكلامك، وجعل النيرات طوع أقلامك، فأنت تهدى بنجومها، وتردى برجومها، فالنثرة من نثرك، والشعرى من شعرك، والبلغاء لك معترفون، وبين يديك متصرفون، وليس يباريك مبار، ولا يجاريك الى الغاية مجار، إلا وقف حسيراً وسبقت، ودعى أخيراً وتقدمت، لاعدمت شفوفا، ولا برح مكانك بالآمال محفوفا. بعزة الله . . .». وقلائد العقيان كتاب قدمه الفتح لأبى اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين أخى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ونائبه فى الأندلس، وقد ألممنا فيما سلف الى بعض صفات هذا الكتاب وأنه هو والذخيرة لابن بسام، واليتيمة للثعالبى، والخريدة للعماد، ونظائرها، لا تعد كتب تراجم بالمعنى المتعارف؛ وإنما هى حِلىّ وصفَات لبعض أفاضل العصر وبلغائه بأسلوب منمق بليغ. ومختارات من منظومهم ومنثورهم. أما تاريخ المترجم له ومنشؤه ونسبه ومولده ووفاته وكيف تصرفت به الأحوال فهذا ما ليسوا منه بسبيل ولا هو من عمائهم وإنما هو من عمل المؤرخ. أما هم فأدباء يُحَلون أدباء معاصرين أو قريبين من عصورهم ... وأسلوب الفتح فى كتبه أسلوب لا شك جزل متين وإن كان كله مُسجّعا؛ ومن ثم قد يعلو وقد يسفل، وقد يرى مطبوعا وقد يرى عليه أثر التكلف والتعمل. وقد كان بلغاء الكتاب فى تلك الأعصر يظنّون السجع عملا فنيّاً فى الذروة من الفن تلى مرتبته مرتبة الشعر للموسيقية التى فيه وإن كان النقدة من المتقدمين ينكرون الولوع به والافراط فيه كما ننكره نحن اليوم. وقد اشترطوا له شروطا أهمها: أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، ولم يشترطوا ذلك فى السجع فحسب؛ وإنما اشترطوه فى كل المحسنات البديعية، قالوا: إن هذه المحسنات ولاسيما اللفظية منها لا تحل علها من القبول، ولا تقع موقعها من الحسن، حتى يكون المعنى هو الذى استدعاها وساقها نحوه، وحتى تجدها لا تبتغى بها بدلا ولا تجد عنها حولا؛ ومن هنا ذم الاستكثار منها والولوع بها، لأن المعانى لا تدين فى كل موضع لها، إذ هى فى الغالب ألفاظ، والألفاظ خدم المعانى مُصرّفة فى حكمها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنة من الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين. ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ولزموا سجية الطبع أمكن فى العقول، وأبعد من القلق، وأوضح للمراد، وأسلم من التفاوت، وأبعد من التصنع الذى هو ضرب من الخداع بالتزويق. والرضا بأن تقع النقيصة فى نفس الصورة وذات الخلقة إذا أكثر فيها من الوشم والنقش؛ وأثقل صاحبها بالحلى والوشم، قياس الحلى على السيف الددان [1] والتوسع فى الدعوى بغير برهان، كما قال المتنبي:

إذا لم تشاهد غير حُسن شياتها   وأعضائها فالحسن عنك مغيب

هكذا يقول إمام النقاد عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ ـ سنة ١٠٧٨ ميلادية ـ ويقول: وقد تجد فى كلام

(١) الددان بالفتح كالكهام وزنا ومعنى أى الكليل

المتأخرين كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم فى البديع – ومنه السجع – إلى أن ينسى أنه يتكلم ليُفهم ، ويقول ليُبين ؛ ويخيل اليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده كمن ثقل على العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها ... ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولا وآخراً ، وأهدى إلى الاحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فانها إذا تركت وما تريد لم تلبس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها . فأما أن تضع فى نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم الخ . «وبعد» فان الكلام فى هذا الموضوع يطول ، ولنجتزئ بهذا المقدار .

والآن ، ألا يسمح لنا القارئ بأن نعرض عليه شيئاً من منظوم الفتح ومنثوره ؟ وأنت تعلم أن شعر الكتاب فى الأعم الأغلب إن هو إلا مقطعات من جهة ، وليس من النسق العالى كشعر فحول الشعراء من الجهة الأخرى . ومن ثم كان ما رأيناه من شعر الفتح على قلته شعراً وسطاً كما قال لسان الدين بن الخطيب . فمن شعره مما لم يرد فى كتبه :

لله قلبى من جنابك زارنى ... يختال زهوا فى ملاء ملاح
ولى التماسك فى هواه كأنه ... مروان خاف كتائب السفاح
فخلعت صبرى بالعرا ونبذته ... وركبت وجدى فى عنان جماح
أهدى لى الورد المضعف خده ... فقطفته باللحظ دون جُناح
وأردت صبراً عن هواه فلم أطق ... وأريت جدا فى خلال مزاح
وتركت قلبى للصبابة طائرا ... تهفو به الأشواق دون جَناح

ومنه قوله وقد أورده فى قلائده يخاطب أبا يحيى بن الحاج :

أكعبة علياء وهضبة سودد ... وروضة مجد بالمفاخر تمطر
هنيئاً لملك زان أفقك نوره ... وفى صفحتيه من مضائك أسطر
وأين لخفاق الجناحين كلما ... سرى لك ذكر أو نسيم معطر
وقد كان واش هاجنا لتهاجر ... فبت وأحشائى جوى تتفطر
فهل لك فى ود ذوى لك ظاهراً ... وباطنه يندى صفاء ويقطر

ومن منثوره مما لم يرد فى القلائد ولا فى المطمح قوله :

معاليك أشهر رسوما ، وأعطر نسيما ، من أن يَغرب شهاب مسماها ، أو يجدب لرائد مرعاها ، فان نبهتك فانما نبهت عمرا ، وإن استنزلتك فانما أستنير قمراً ؛ والأمير أمده الله تعالى أجل من أعتصم فى ملكه ، وأنتظم فى سلكه ، فانه حسام بيد الملك طلاقته فرنده ، وشهامته حده ، وقضيب فى دوحة الشرق رطيب ، بشره زهره ، وبره ثمره ؛ وقد توسمت نارك لعلى أفوز منها بقبس ، أو تكون كنار موسى بالوادى المقدس . وعسى الأمل أن تعلو بكم قداحه ، ويشف من أفقكم مصباحه . فجرد أيدك الله تعالى صارم عزم لا يفل غروبه ، وأطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه ... » وأما بعد « فان أردت التروى من منثور الفتح وبدائعه ، فعليك بالقلائد والمطمح ، فهما بحق نهران يزخران بالمعجب والمطرب ، رحمة الله على هذا الأديب الأندلسى العبقرى المبدع . . .

(تم البحث)

عبد الرحمن البرقوقى

بمناسبة ذكرى المتنبي الالفية

دُنيا المُتنبي

إن أهنت الدنيا فالك دنيا
كلها عزة ونبــل وجود

للسيد أمجد الطرابلسى

هكذا المجدُ ! هِمّةٌ وَصُعودُ   وَحياةٌ بعدَ الرَّدى ، وَخُلودُ
هكذا المجدُ ! صَيْحَةٌ تَملأ الأر   ضَ كما تَملأُ الفضاءَ الرُّعودُ
هكذا المجدُ ! وَمْضَةٌ تَبهرُ العيـ   نَ ، وَتُجلَى بها اللّيالى السّودُ
هكذا المجدُ ! فَرحةٌ لِبَنى الأر   ضِ وَلِلأرضِ والسَّماءِ وَعيدُ
هكذا المجدُ مَجْدُ «أَحمَدَ» لَحنٌ   فى سَماعِ الدّنيا لَهُ تَرْديد
نَفْحَةٌ مِنْ خَمائِلِ الخُلْدِ رَيّا   بِشَذاهُ ، وَبُلْبُلٌ غِرّيد

* * *

يا نَبِيَّ القَريض كَمْ لكَ بَيْتٍ   مَلأَ الخافِقَيْنِ وَهوَ شَرودُ !
كَخِطابٍ فَصْلٍ ، وَكَمْ مَثَلٍ سا   رَ فَأَبلَى القُرونَ وَهوَ جَديد !
سائِلِ الأَعْصُرَ الطِّوالَ أأَوْدى   لكَ فيها بَيْتٌ وماتَ قَصيد ؟
يَتَوالى المَدى وشِعْرُكَ باقٍ   وَتَشيخُ الدنيا وَأنْتَ وَليد
شِعْرُكَ المُستَفيضُ فى عُنُقِ الأَ   يّامِ دُرٌّ وَلُؤلُؤٌ مَنْضود
أىُّ سَلْوى عَنِ الزّمانِ يَراها   فى قَوافيكَ بائِسٌ مَنْكود
أىُّ سَلْوى عَنِ الحَبيبِ يَراها   فى قوافيكَ ثاكِلٌ مَفْؤود
شِعْرُكَ النّارُ لِلجَبانِ سِلاحٌ   وَعَتادٌ وَعَزْمَةٌ وَجُنود
وَهُتافٌ يَهُبُّ بالنِّكْسِ حَتّى   يَرِدَ الكالِحاتِ وَهوَ جَليد
يَستَثيرُ الأَسرى عَلى الظُّلمِ حَتّى   يَتَنَزّى المُقَيَّدُ المَصْفود
وَيَهُزُّ الدنيا على الجَوْرِ حَتّى   تَتَعَرّى سَلاسِلٌ وَقُيود

* * *

أيُّها الشاعِرُ الّذى أطرَبَ الأَجْـ   ـيالَ مِنْهُ الإنشادُ والتَّغْريد
وَغَدا الدهرُ راوِياً وَمُعيداً   لأغاريدِهِ ، وَجَلَّ المُعيد
أيُّها الشّاعِرُ الّذى سَحَرَ الأَسْـ   ـماعَ حَتّى كأنّهُ داوُد
وَتَغَنّى بِلَحْنِهِ الفَلَكُ الدّوّا   رُ وَالَيمُّ وَالرُّبى وَالبيد
مِلءُ صَدْرِ الزّمانِ حِكْمَتُكَ الَمثْـ   ـلى وَإرْشادُكَ القَويمُ السّديد
«أنتَ فى شِعْرِكَ المُظَفَّرِ نَبِيٌّ»   مُرْسَلٌ مُلْهَمٌ وَأُفْقٌ مَديد
وَفُحولُ القَريضِ بَعْدَكَ يَرْوو   نَ عَلى الدهرِ بَحْرَكَ المَوْرود
هكَذا الشِّعْرُ نِعْمَةُ اللهِ فى الأر   ضِ تَغَنّى بِها الهَوى والنُّجود
يَتَخَطّى الزّمانَ جيلاً فَجيلاً   وَيُبيدُ القرونَ وَهوَ خَلود

* * *

يا ابنَ حَمْدانَ أنتَ لولا أبو الطّيِّـ   ـبِ أَتى لِذِكْرِكَ التَّخْليد
أنتَ أَوْلَيْتَهُ العَطايا جُزافاً   والعَطايا مَعَ الزّمانِ تَبيد
وَحَباكَ الخُلودَ فى مُصْحَفِ العِزّ   م وَهذا هوَ النَّدى والجود
أنت لَولاهُ ما رَأيناكَ فى السّا   حِ ، وَلِلحَرْبِ ضَجَّةٌ وَبُنود
تَصْدَعُ الجَحْفَلَ الأَلَفَّ بِسَيْفٍ   مُصْلَتٍ حُرِّمَتْ عَلَيهِ الغُمود
باسِماً تَطلُبُ الرَّدى مُستَميتاً   وَالرَّدى مِنكَ خائِفٌ مَكدود
وَفلولُ الأعداءِ تَبغى عَنِ المَوْ   تِ مَحيداً وليسَ ثَمَّ مَحيد
كُلُّهم يَصرُخُ النَّجاةَ ويطوى   صَفَحاتِ القِفارِ وَهوَ شَريد
صورَةٌ لِلنِّضالِ عَيْنى تَراها   فى ارتِياعٍ ، ومَنْظَرٌ مَشْهود

* * *

يا أبا الطّيّبِ الزّكىَّ مِنَ الوَحْـ   ـىِ وَيا أيُّها الحَديثُ الفَريد
إنْ أهنتَ الدُّنيا فإنَّكَ دُنيا   كُلُّها عِزَّةٌ وَنُبْلٌ وَجود
قد أبيتَ الرِّياءَ والكونُ خَتْلٌ   وَرِياءٌ وَخُدْعَةٌ وسُجود
وَحَقَرْتَ الدنيا يَموجُ بِها الشَّـ   ـرُّ وَتَغلى مَطامِعٌ وحُقود
وَسَئِمْتَ الحَياةَ رَنَّقَها الظُّلْـ   ـمُ وَأودى بِصَفْوِها التَّصْريد
يَتَلَوّى النّبوغُ فيها مِنَ الجو   عِ ويَعلو عُروشَها الرِّعديد
آفةُ المرءِ فى الحَياةِ شُعورٌ   مُستَفيضٌ وخافِقٌ مَجْهود
ونَصيبُ الإنسانِ بَينَ الجَلاميـ   ـدِ عَذابٌ وَحُرْقَةٌ ونُكود
وأخو النُّبْلِ والإباءِ بَغيضٌ   تَتَجافى عَنْهُ الرِّفاقُ ، وَحيد
مُستَضامٌ يَطوى الحَياةَ كَئيباً   وَهوَ فى مُرِّ عَيْشِهِ مَحسود
يُنشِدُ العُمرَ فى تُرابِ التّمنّى   والأمانىُّ لَوْعَةٌ وجُهود

* * *

يا أبا الطّيِّبِ السَّنىَّ مِنَ الذِّكْـ   ـرِ وَيا أيُّها الثَّناءُ الحَميد
ما الّذى أشتَكى إلَيكَ وَقَلبى   مُعْتَمٌ مُوجَعٌ ، ودَمعى بَديد
قد شَكوتَ الزَّمانَ والمَجدُ مَجدٌ   عَرَبِىٌّ ، وغُصْنُهُ أُمْلُود

وملِئتَ الحياةَ فى ظِلّ «سيفٍ» وهْوَ فَحْلُ العُروبةِ الصِّنْديد
فلعمرى ماذا نبثُّ ونشكو بعدَ أن صوَّح التراثُ المجيد؟
قد عفا الْمُلكُ وانطوى كلُّ عزّ وهوىٰ العرشُ والبناءُ الَمشيد
«وغدا الحُرُّ من بنى الصِّيد عبداً بينما العبدُ سيِّدٌ معبود»[1]
وتمشى الصَّغارُ فوق شبابِ الـ مجد يختال هازئاً ويسود
وبنو الصِّيد ناعمونَ على الضَّيْـ ـمِ فلا غُصّةٌ ولا تنكيد
يا أبا الشِّعر أين منك دوىٌّ هو للظلم والطغاةِ وعيد
أين صيحاتُكَ التى تتنادىٰ بصداها يومَ الزِّحامِ الأسود
قُم وصَرِّخْ بين الغُفاةِ مُهيباً فلقد طالَ بالنِّيامِ الهجود
وأثِرْ نخوةَ الضراغمِ حتى يُرْخِصوا كلَّ مُهجةٍ ويجودوا
وحَمِيّةٌ للخلودِ أن تمَّحى العُرْ بُ، ويَبلى لِواؤُها المعقود
ويصبحُ المعهد فى رَبْعِها القَفْـ ـرِ، ويُطوى حديثُها الممدود

* * *

يا أخا المجدِ والمكارمِ ماذا فى حياةٍ نعيمُها تعقيد؟
لو تركتَ الدنيا وأهوالَها السُّحْـ ـمَ، فإن الحياةَ فيها جُدود!
أنتَ تبغى السماءَ والجَدُّ يأبى وتروضُ الزمانَ وهْوَ عنيد
قد ركبتَ الأهوالَ فى دَرْكِ الْمُلْـ ـكِ فلا راحةٌ ولا تهجيد
وقطعتَ القِفارَ يحملُك الشَّو قُ ويحدوكَ حلْمُكَ المنشود
عزْمةٌ دونَها السُّيوفُ للواضى وإباءٌ، وَهِمَّـةٌ لا تميد
ومَضاءٌ يستعذبُ الموت وِرْداً ويفُلُّ الصُّروفَ وَهْوَ حديد
وإذا النفس دُلِّهت بمُناها فالمنايا خمائلٌ ومُهود
حُلُمٌ يستبيك فى أفُقِ المجـ ـدِ بَهِيٌّ، لا أعيُنٌ وخدود
وقدود القَنا سَبَتْكَ غراماً لا قدود عاجيّـةٌ ونُهود
رُضْتَ صَعبَ الفلا وجُبْتَ الصحارى
ظامئاً يطَّبيكَ وِرْدٌ بَرُود
«وشققتَ النَّوى إلى العِزّ» حتى جاءكَ الموتُ فى المطافِ بعيد[2]
فرميتَ السلاحَ بعد حياةٍ كلها ثورةٌ وجَهْد جهيد
ولقيتَ الحِمامَ فى كنفِ المو تِ وقد عزَّ فى الحياة الهُمود
ثمَّ ضاقَ الثرى الرحيبُ وضاقت عنكَ يا ابنَ الخلودِ هذى اللُّحود
فمحتْ قبرَكَ السنون المواحى ومشى فوقهُ الزمانُ المبيد
مُتَّ إلا صداكَ فهْوَ مُرِنٌّ هازىءٌ بالمدى الطويل، شديد
إن عفا قبرُكَ الضئيل فأنت الـ ـيومَ فى كلِّ خافقٍ ملحود
أو خبا لحنُكَ الجميل فأنتَ الـ ـيومَ فى مِسمعِ الزمانِ نشيد

(دمشق) أمجد الطرابلسي

(١) إشارة إلى قوله أبى الطيب: الحر مستعبد والعبد معبود
(٢) إشارة إلى قوله:
ومن كان قلب كقلبى له يشق إلى العز قلب النوى

الشتاء فى انجلترة

(ذكرى)

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقدمة:
يسقط الثلج فى انجلترة شتاء على شكل حبات الدقيق فيعلو الأرض والمنازل والأشجار، فيخيل للرائى كأنما قد كسيت الدنيا كساء من القطن، وكأن النهار ليلة مقمرة، وكأنما بياض الثلج من أثر بياض أشعة القمر؛ وتذكى النار فى المواقد فى البيوت، فكأن ألوان النار ألوان الأزهار الزاهية فى جنة الربيع؛ وتذكى نار المواقد وجنات الوجوه، فكأن فى المواقد جمرا، وفى الوجوه جمراً؛ وتبحث فى القلوب فترى نار الحياة وشرتها، وترى الحب والآمال لم يغض منها برد الشتاء وثلجه (الناظم)

نشر الضريبُ على البسيطة حلة بيضاء تمحو غبرة الغبراء
يسعى على وَضَحِ النهار كأنما يسرى الفتى فى ليلة قمراء
فكأنَّ نورَ البدر ما حَلَّى الثرى برواء تلك الحلة البيضاء
غلب البياض على اصفرار أشعة نهب النهارَ من اصفرار ذُكاء
وعلى المساكن كسوة منه كما تعلو المفارقَ شيبةُ الشمطاء
فإذا مشابهة المشيب كدعوةٍ للنفس أن تنأى عن الأهواء
وإذا استراح لمُقْمِرٍ من لونه راءٍ ترى الأحلامَ عينُ الرائى
وكأنما فى عالم الأرواح يـ ـمى من سعى لا عالم الدقعاء
وكأن زهراً أبيضاً غطَّى الثرى برواء ثوب الروضة الغناء
ولكل لون حسنه كالليلة الـ ـليلاء أو كالقبة الزرقاء
ولربما اختلف الجمال وفعله متشابهٌ فى أخذة الصهباء

مؤتمر القلوب

للأستاذ محمد السيد زيادة

بقية المنشور في العدد ١٢٧

وبقيت حزيناً مطرقاً أتفكر في أساليب الشقاء على الأرض حتى أخرجني من الحزن قلب رأيته حائراً بين القلوب موزعا عليها مجنحا فوقها !! يجد قلبا آسيا فيميل اليه مشفقا عاطفا يسأله عن قصته ثم يواسيه ويعزيه ، ويظل مائلا اليه بشفقته وعطفه حتى يتأكد أنه خفف عنه بعض ألمه . ثم يتركه ويمضي في المجتمع نائحاً يردد في نوحه صدى القصة التي سمعها من ذلك القلب ، ويذيع سرها منمقا ، ويصورها مجسمة ليتأسى صاحبها ويستعبر سامعوها ... ثم يصادف قلباً آخر ذا متربة فيبذل له قسطه من دموعه ومن عزائه ، ثم يمضي الى سبيله في المجتمع موضحا ما غمض شارحا ما تعقد . وهكذا رأيته كالطائر الغريد يقضي كل وقته متنقلاً بين الأدواح والغصون يتسمع الهمس والنبض والأنين ، ويتغنى بما يصل الى حسه من شجو القلوب وأساها ، فيصرف في ذلك راحته وهدوءه . ويتهافت على ذلك كأنما هو يؤدي وظيفة يحتم عليه الواجب أن يؤديها

قلت : قلب مَنْ هـذا القلب المؤمن العطوف الذي يعذب نفسه في راحتنا ، ويصب علينا من مشاعره حنانا ورحمة ، وينساب بيننا كما ينساب الجدول في الحديقة بين مختلف الزهور يغيث منها الظامئ ، ويُنعش الذابلَ ، ويُرقص المنتعش ؟

قالوا : هذا قلب شاعر . . . وما خلق الشعراء إلا رحمة للعالمين . . . قلب كريم يتعذب بين الناس بحنانه ، ليزرع الحنان في قلوبهم بعذابه ؛ فتُرينا حياته كيف تكون حياة الملائكة إذا صاروا من بني الانسان . إن في أحنائه لعالماً فسيحاً تمتزج فيه آلام الناس بآلامه هو فتكون كتلة واحدة من الألم يتفجر من بينها ينبوع فوّار من الرحمة ينهل منه كل بائس

لكأنما هو مكلف باستخراج مصيبة لنفسه ، من كل مصيبة تنزل بغيره ، أو مرسل من عند الله لتخفيف أشجان مخلوقاته . فكم يفتش في مناحي الحياة عن مآسيها وعبرها ليتحمل نصيباً منها ! وكم ينقب في أغوار الكيان عن خفاياه ومكنوناته ليحدثُ الناس عنها ! وكم يكدّ ليخلق من كل ما حوله جنة لكل من حوله !

* * *

ولما أتى للمؤتمر أن يبدأ عمله وجدتُ قلب الشاعر أظهرنا اهتماما ، وأشدنا فرحا ، وأكثرنا حركة . وما كدت أعجب لهذا حتى عجبتُ لأكثر منه إذ علمت أنه هو الداعي إلى هذا المؤتمر

وساد السكون فترة ثم وقف قلب الشاعر يقول : دعوتكم إلى هنا اليوم يا اخواني لأنادي فيكم بالوئام فهل أنتم مجيبون ؟ إذا كان ذلك ، وما أظن إلا ذلك ، فلنجمع إذاً أمرنا على اقرار المحبة ، وتبادل الوداد والاخلاص بيننا ؛ ولنترك إذن كل مايتعلق في أهداب الحياة من المساوئ والمكاره التي اذا وقع أحدنا في إحداها وقع في أخس الصفات وبات مذموما ممقوتا ؛ ولنتنصّل إذن من شيء بغيض اسمه البغض ، ومن شيء كريه اسمه الكراهية ؛ ولنتجنب الوضاعة في تجنب الحقد ، ولننبذ الأنانية في نبذ الحسد

لنشرع لنا يا إخوتي سَنناً جديداً ، ونمشي في نوره الى المثل الأعلى لنقاوة القلوب . كونوا جميعاً عصبة واحدة كلها الداعة : نحن إخوة فليس بيننا إلا ما في الاخاء من إخلاص ووفاء . كونوا جميعاً قلباً واحداً لا يحمل غير الايمان والحب

قال قلب الشيخ المصلح : أكرم بك يا قلب الشاعر !! لقد قلتَ ما أحبُّ دائما أن أقوله وأن أعمل له . إنك لصورة مني في قالب الجرأة ، وإني لصورة منك في قالب الحياء

ثم تحول الى الجمع وقال : انصتوا له يا أعضاء المؤتمر ،

وإذا المواقد في البيوت تضاحكت
من شدة الايقاد والإذكاء

خلت الربيعَ سعى اليك بحفله	والنارَ زهرَ الجنة الفيحاء
يُذكي الوجوهَ لهيبُها فتراها	جمرين يشتعلان في الظلماء
ما غض من دفء الحياة ونارها	ثلج الشتاء على ثرى الغبراء
الحب والآمال فوق متونه	كالحب والآمال في الصحراء

والقلب قلبٌ حيث كان اذا ذكت
نار الشباب وشرّةُ الأحياء

عبد الرحمن شكري

وأطيعوه ، إنه يدعوكم إلى السلام

قال قلب الشاب الساذج المغتر وهو يرقص كالطفل يرى لعبة جديدة له في يد أمه : مرحى ... مرحى ... جاء السلام ... نعم السلام ؛ فلنتسارع جميعاً اليه ولنستبشر بالهدوء والطمأنينة

قال قلب الرجل المفسد : كأن لك غرضاً خفياً من وراء ندائك هذا يا قلب الشاعر ! ! فأنت تدعونا الآن إلى الانصراف عما خلقنا له من عمل وجهاد ، والركون إلى ما خلقنا لنحاربه من خمود واستسلام

قال قلب الشاعر : صه يا هـذا القلب المتكلم ... ماذا في السلام من الخمود والاستسلام ؟ وهل معنى العمل والجهاد أن نتسابق في الضغائن والأحقاد ؟ اعملوا وجاهدوا ولكن فيما فيه الخير والنفع تعيشوا في حدود السلام سالمين

قال قلب المفسد : وكيف نسلم إذا كانت نواميس الطبيعة تحتم علينا أن تختلف طباعنا ، فنختلف بها ، فيأخذ كل منا منهجاً لنفسه ، فتتعدد الأحوال بتعدد المناهج ، فتنجم المشاكل فتخلق العناد ، وتستلزم العمل والجهاد

قال قلب الشيخ المصلح : ما أخطرك أيها القلب على كل محيط تندس فيه ! ! إنك لخبيث وتدافع عن الخبث بقوة هي فجور الخبث وتسلطه وانتقاله من طور الداء الى طور الوباء . لماذا لم يتكلم غيرك منابذاً دعوة السلام ، محاولا تفنيد الرسالة التي حملها الينا قلب الشاعر ؟ ولماذا لم تبد من غيرك نذر الخلاف ووسائل الشر ؟ أليس هذا لأنك مجبول على الخسة وحقارة المبدأ ؟ . . . ما أقل شأنك عند الله ، وما أبعدك عن رحمته ، وما أحقك بأن تكون سخرية لكل ساخر !

قال قلب الشاعر : لقد فسد خلقه ، ثم أعلن في هذا المؤتمر فساده ، ثم دافع عنه الصلاح ، ثم أراد أن يجعله نهجاً نتسقل فنعمل به جميعاً . . . . ليس بعد هذا حضيض لنحط ، أو قرار لنازل من مستوى الآدميين على دركات منها الوقيعة ، ومنها النميمة ، ومنها الدس ، ومنها الرياء ؛ وآخرها التبجح في كل ذلك ! ! أخرجوه عنا وأبعدوه

فانقضضنا عليه وطردناه ، وكان كل منا يشعر إذ ذاك بأن هذا القلب رذيلة تتحكك به ، فأمجد شعورنا نشعرنا كلنا بأنه رذيلة تريد أن تسلك سبيلها الظلم في المجتمع ، فوجب علينا أن نصدها ، بل وجب علينا أن نمحوها ... ولما طرد من بيننا ذلك القلب الشرير ، أو ذلك الشر المتسلط ، أو ذاك الخطر المتسلل ، اسوأ الطرد كانت لا تزال بيننا قلوب من طبقته ، تعمل على شاكلته ، فتوجست خيفة ، وتضاءلت ، والتمست النجاة ، واندحت الخاني . ولكنها كانت مع هذا حريصة على أن تظل محسوسة في المؤتمر ، أو مخبوءة في مسمع مما يدور فيه لتشبع غريزة حب الاستطلاع التي هي احدى لوازم عملها ، وإحدى دعائم حياتها

وعرفناها فألحقناها زميلها الذي فضح نفسه حين تكلم ، فكان شراً على نفسه حين أراد أن يكون شراً علينا ، وانقلبت عليه سيئات ما عمل قبل أن تصل الينا

* * *

ووقف قلب الشاعر يكرر نداءه ، ويستكمل رسالته ويقول : أحسب الآن أننا نجونا من الرذائل بطرد دعاتها ومحبذيها ، وأعتقد أننا سنحارب القلوب المضرة ما استطعنا حتى تصير مثلنا أو تنقرض ، وأن كلاً منا قد آمن بنعمة السلام ، وأننا قد أصبحنا إخوة ، ولكن تظل أخوتنا ناقصة حتى نسبغ عليها شيئاً ضرورياً لها هو روح الأخوة . . . فينظر بعضنا الى بعض دائماً نظرة الاحترام الخالية من الاستصغار أو الاستنكار أو الاستهتار ، وإن يكن منا قلب ضئيلا في كونه ، قليلا في شأنه . . . فليكن بيننا كبيراً في مقداره ، كثيراً في اعتباره ، وليكن شعوره محترماً ككل شعور

فاستاء قلب الجبار وقال : يا عجباً ! ! كيف يساغ أن نعامل الضعيف كما نعامل القوى ؟ ؟ وكيف نجل ذاك كما نجل هذا ؟ وكيف نعتبر ذاك في ضعفه كما نعتبر هذا في قوته ؟ ألا يكون في ذلك خلط ، وتزييف في الحقائق ، وغبن للكرامة ، وتشويه للحياة ؟ . . . . إنها لمساواة فاشلة باطلة ، كالمساواة بين الخادم وسيده ، أو بين الطفل وأبيه . فلا العقل يتصورها ، ولا الطبيعة تقيمها ، ولا ظروف المعايش تبيحها

قال قلب الشاب الساذج المغتر : أجل ... أجل .. هذا هو الصواب ؛ فالقوى لا يمكن أن يقبل الضعيف عديلا له أو شبيهاً به ، لأن القوى لا يستطيع أن يهبط حتى يعيش عيشة الضعيف ، والضعيف لا يستطيع أن يعلو حتى يعيش عيشة القوى ، فليكن القوى فوق الضعيف ، ولتكن القوة موضع الاحترام

قلت أنا أخاطب قلب الجبار : أنت واهم أيها القلب المتجبر

تحسب أن الصدارة للقوى يعمل مايشاء فيرتاح الجميع لما يعمل ؛ ثم يأبى عليك جبروتك أن تساوى عن يقل عنك قوة ومكانة ؛ ولكن هوّن عليك فانك لم تُدْعَ إلى ما فيه غبن لكرامتك أو حطم لكبريائك ، وإنما دُعيتَ إلى ما تمد كرعا لو فعلته .

دعيت إلى تبادل المحبة مع القوى والضعيف على السواء ؛ فبقدر قوتك يحسب على الضعيف كرَمُك ، وبقدر كرمك يُعتبر تواضعك ، وبقدر تواضعك يكون سموُّك

نحن نعرف أنك قوى ، ونعرف أنك لست وحدك القوى ، فما كثرنا ذو قوة ... وإنــ لم تكن قوته فى بنيته فنى صلابة إيمانه ، أو فى طيبة عنصره ، أو فى طهارة نزوعه ، أو فى عزته وإبائه ؛ وقد ينقصك شىء مما فى غيرك من هذا كما ينقص غيرك شىء مما فيك من القوة . فلنقدر كل هذه الصفات ، ولنعلم أن القوة ما هى إلا واحدة منها

قال قلب الشاعر : ليس ذنب الضعيف أنه ضعيف ، لأنه خلق كذلك فلم يُدْخل شيئاً جديداً على خلقته ؛ والقوى يكون مذنباً إذا اختال بقوته ، لأنه يدخل باختياله عيباً كبيرا على خلقته . . . .

* * *

وكنت أظن أن عمل المؤتمر قد انتهى إلى هذا ، ولكن وقف قلب الشاعر مرة أخرى يستكمل رسالته ويقول :

مادمنا اخوة ، ومادمنا نشعر بروح الأخوّة . . . . فعلينا واجب هو آخر واجباتنا غير أنه أهمها ، هو أن نقدم العون والمواساة لمن كان منا منكوباً أو مكروباً ؛ فمثل هذا القلب — وأشار الى قلب الموسى بجانبى فكى — كم بألم ، وكم يكتم ألمه ، لأنه لا يجد من يشكوه اليه ، وإن وجد فانه لا يجد من يواسيه فيه ، فيبكى وحده كلما انفرد فتذكر ، أو كلما اجتمع فتفكر — بكاء الصابرين على غير أمل ، والأحياء فى غير رجاء

فأقبلنا جميعاً على هذا القلب المسكين نواسيه ، حتى انفرجت كربته ؛ ثم أخذنا نتشاكى ونتناجى ونتواسى ؛ ثم أقبلنا على قلب الشاعر نكبره ونصافحه ونحييه ، ثم انفض المؤتمر

ولما خرجت من التفكير والحلم ، ثم عدت كما أنا شخصاً فى صدره قلب ، قلت : آه ! ! كم يعيش العالم سعيدا لو اتحدت قلوبنا فاتحدنا ؛ وكان أساس اتحادنا الأخلاص !

(طنطا) السيد محمد زيادة

بين المتنبى وسيف الدولة

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

غادر المتنبى أرض مصر وشعوره لأميره السابق سيف الدولة نستطيع أن نجمله فى بيتين قالهما المتنبى وهما :

فارقتكم فاذا ما كان قبلكم قبل الفراق أذى ، بعد الفراق يد
إذا تذكرت ما بينى وبينكم أعان قلبى على الشوق الذى أجد

فهو قد خرج من مصر ونفسه توافة إلى سيف الدولة ، مشتاقة إلى الاستظلال بكنفه ، لأن آماله التى غرسها عند غيره لم يجن منها غير الخيبة والندامة ؛ ولم يكن اشتياق سيف الدولة إلى لقاء المتنبى بأقل من ذلك ، فقد أحس بعد فرقته بفراغ لم يملأه شاعر ممن حوله ، ورأى بلبله الفريد قد طار عن أيكته ، وحط عند غيره ، ولم يكن أحب إليه من عودته ، كما دلت على ذلك فعال سيف الدولة بعد أن فارق المتنبى أرض مصر ، وهو إحساس كان من السهل على المتنبى أن يستثمره وأن يقصد تواً أرض سيف الدولة ، ولكنه لم يفعل لأمور نستطيع تلخيصها فيما يأتى :

أولاً ما فطر عليه المتنبى من سمو النفس والعظمة التى كانت تملأ جنبيه ، فقد عز عليه أن يلجأ إلى من فارقه مغضباً منه ، وأن يذهب إلى من فرّط فيه ولم يبق عليه ، بل سمع فيه قول الوشاة

وثانياً هذا الشعر الكثير الذى قاله مضطراً تحت عوامل نفسية ، وعوامل خارجية وثورة واضطرام عواطف ، وسب فيه سيف الدولة ، فلم يجد من اللياقة أن يقصد من هجاه ، ورأى فى ذلك غضاضة لا يسيغها ولا يقبلها

لم يذهب المتنبى إذاً إلى سيف الدولة ولكنه قصد الكوفة ، وهناك كثيراً ما ذكر أيامه السالفة لدى الأمير وعهده النادر ؛ أما سيف الدولة فقد نسى كل ما ذكره المتنبى عنه حينما كان بمصر وأرسل إليه ابنه بهدية ، فلم يجد المتنبى مايشكره به سوى شعره ، فكتب إليه قصيدة بدا فيها ما يكنه من جميل الذكرى وفيما يقول :

كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدنا ، وأنت السبيل
والمسمَّون بالأمير كثير والأمير الذى بها المأمول
الذى زلت عنه شرقاً وغرباً ونداه مقابلى ما يزول
نقص البعد عنك قرب العطايا مرتعى مخصب وجسمى هزيل

إن تبوأتُ غير دنياي دارا   وأتاني نَيْلٌ فأنت المنيلُ
من عبيدي إن عشت لي ألف كافو   ر ولي من نداك ريف ونيل

ولا ينسى في تلك القصيدة أن يسمعه تلك النغمة القديمة التي كان يطرب بها مسامعه أيام كان في كنفه ، فهو يحدثه عن حروبه مع الروم وطول عراكه معهم ، لأن تلك النغمة أعذب نغمة لدى سيف الدولة ، فهو يقول له :

وموال تحييهم من يديه   نعم غيرهم بها مقتول
فرس سابق ، ورمح طويل   ودلاص زُغف وسيف صقيل
أنت طول الحياة للروم غاز   فمتى الوعد أن يكون القفول

تلك القصيدة تشعرك حقاً بأن المتنبي يحفظ أجل الذكريات لأميره ولا ينساها . ثم لما ماتت أخت سيف الدولة وورد نعيها العراق وسمع به المتنبي أبت عليه نفسه إلا أن يكون له نصيب من الحزن عليها فرثاها بقصيدة تدلك حقاً على وجدان متألم ، وأنه يحزن لحزن أميره القديم ويرثى لمصابه ، وفيها يقول :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر   فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا   شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
أرى العراق طويل الليل مذ نعيت   فكيف ليل فتى الفتيان في حلب
يظن أن فؤادي غير ملتهب   وأن دمع جفوني غير منسكب
بلى وحرمة من كانت مراعية   لحرمة المجد والقصاد والأدب

فأنت ذا تراه ينفي عن نفسه أنه لم يشارك أميره في الحزن ويقسم له بحرمة الفقيدة ثم يقول :

يا أحسن الصبر زر أولى القلوب به   وقل لصاحبه يا أنفع السحب
وأكرم الناس لا مستثنياً أحداً   من الكرام سوى آبائك النجب

ولعل رغبة سيف الدولة قد اشتدت في أن يكون المتنبي إلى جانبه فأرسل إليه كتاباً بخطه إلى الكوفة يطلب منه أن يسير إليه ، فأجابه بقصيدة فيها عتاب جميل واعتذار عن التخلف ، ومدح لسيف الدولة ؛ ولعل المتنبي بذلك المدح يريد أن يعوض على سيف الدولة فقده ؛ واستمع إليه يعتذر ويقول :

وما عاقني غير خوف الوشا   ة، وإن الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم   وتقريبهم بيننا والخبب
وقد كان ينصرهم سمعه   وينصرني قلبه والحسب
وما قلت للبدر أنت اللجين   ولا قلت للشمس أنت الذهب
فيقلق منه البعيد الأناة   ويغضب منه البطيء الغضب

ويمدحه ويقول :

وما لاقني بلد بعدكم   ولا اعتضت من رب نعماي رب
وما قست كل ملوك البلاد   فدع ذكر بعض ، بمن في حلب
أفي الرأي يشبه أم في السخا   ء أم في الشجاعة أم في الأدب

ثم يمضي مادحا معيداً على أذنه تلك النغمة القديمة — كما قلنا — نغمة مدحه بقتال الروم

تلك علاقة المتنبي بسيف الدولة وهي علاقة لا تتعدى المراسلة ، وقد يقال : أما كان من الخير للمتنبي أن يذهب إلى سيف الدولة بعد أن دعاه ؟ ولكن إذا علمنا ما كان يخشاه المتنبي من الوشاة وأن المأساة ربما تتكرر خففنا من لومه والاعتراض عليه

لم يلق المتنبي إذاً سيف الدولة بعد أن فارقه حتى قتل ؛ أما شعور الأمير ساعة علم بمقتل شاعره القديم فإن كتب الأدب إذا كانت لم تحدثنا عنه فمن السهل علينا فهمه ، إذ ليس من اليسير على سيف الدولة تقبل مثل هذا الخبر من غير أن يحزن له وأن يتألم من أجله في صميم فؤاده

أحمد أحمد بدوي

٧ـ معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

وكان لموقع عدوى خطورة خاصة من حيث الاحتشاد في « ادجرات » حيث يوجد طريق يربط عدوى بأسمرة توا بعد أن يمر بغوندت ويقطع خط الاتصال على القوات في ادجرات ، وإذا أرادت الانسحاب تكون القوة الحبشية في عدوى قد سبقتها الى اسمرة ، بينما موقع أسمرة خطير وهو واقع على عقدة الجبال ويستر ميناء مصوع

نعم يوجد طريق آخر يربط ادجرات نزولا في جنوبي مصوع وتستطيع القوات أن تتمون وتنسحب بواسطته إلى الساحل عند الحاجة ، بيد أنه لا يستر الميناء « مصوع » ، وهذا الميناء هو القاعدة لجميع الحركات ومنه تتمون حاميات « كرن » و« كسلا » ، ولم يكن البريطانيون راغبين في اخلاء كسلا قبل أن يقضوا على حركات المهدي تماما

وقد أدى جمع القوات في ادجرات إلى مجابهة القيادة الطليانية مشكلة التموين . وكان في عدوى مقدار كبير من الفتات اضطر الطليان الى اتلافه لما انسحبوا منها . ولم تكف وسائل النقل لنقل المؤن . وبدلا من أن يموّنوا الوحدات الأهليــة أخذوا يدفعون اليها الدراهم بدلا من الأرزاق ، بينما كانت الأرزاق قليلة ، وكانت الأحوال جميعاً تدل على أن الطليان وقعوا في مأزق لا يمكنهم الخروج منه إلا بصعوبة

فأرادت الحكومة الطليانية أن تنقذ الموقف بارسال قوات جديدة الى اريترة ؛ وقررت من جهة أخرى إنزال القوات في ميناء زيلع للتقدم نحو هرر واستمالة المسلمين الى جانب إيطاليا وتهديد العاصمة « أديس ابابا » ، فتضطر القوات الحبشية الى الانقسام . بيد أن حكومتي بريطانيا وفرنسا لم توافقا على إنزال القوات الطليانيــة في ميناء زيلع في الصومال البريطاني لأنهما كانتا قد اتفقتا على اعتبار مقاطعة هرر من الأملاك الحبشية . وهــذه القاطعــة الكثيرة السكان تتجر مع المستعمرتين الفرنسـية والبريطانية ، ولكلتا الدولتين منافع خاصة فيها

والذي زاد الطين بلة أن الخلاف ظهر بين القيادة الطليانية في اريترة وبين الحكومة الطليانيــة في رومة . وكانت البرقيات التي يرسلها رئيس الحكومة « كريسبي » تندد بأعمال الجنرال باراتيري ، وكلما ورد خبر مؤلم الى ايطاليا تثور زوبعة في رومة تنتهي بارسال برقية شديدة اللهجة الى حاكم المستعمرة وقائدها

ومن هذه البرقيات البرقية التالية التي أرسلها رئيس الحكومة إلى الحاكم العام بعد وصول أخبار نكبة « امبا — الاغي » :

« أرسلنا اليك أكثر مما طلبت ولا نزال نرسل . وإذا كان سبب المصائب عدم كفاية وسائلك أو قلة كفايتك فالويل لك »

وفي البرقية الأخرى يذكر ما يلي :

« يظهر لنا أن في روحك شيئا من الخيبة والتردد »

وطلب الجنرال إرسال أربعة عشر فوجاً وخمس بطريات جبلية ؛ بيد أنه لم يفكر في كيف يتمكن من تموين هذه القوات بينما كانت القيادة عاجزة من تموين أولئك الموجودين في المستعمرة ، وكان يبحث في القيام بالهجوم من جديد . وكان جواب « كريسبي » اليه ما يلي : « أنا لا أريد منك خطط حركات ، وإنما أرغب ألا تتكرر الهزائم »

وفي ٨ يناير ١٨٩٦ أبرق الجنرال « باراتيري » أنه لا يريد إرسال قوات لأنه لا يتمكن من تموين القوات الموجودة عنده . وبعد سقوط قلعة « مكلة » تأكد الجنرال من كثرة قوات الحبشة التي عسكرت بين « مكلة » وادجرات ، فقرر ترك مقاطعة « تيجري » والانسحاب بقواته إلى مصوع ، وطلب الموافقة على ذلك من رومة ، إلا أن الحكومة الطليانية لم تشاركه في هذا الرأي ، وكان كريسبي يستهزئ بباراتيري مبرقا اليه : « انك مصاب بالتدرن »

فلم ير الجنرال بدا من رمي الجيش الطلياني في النار

٨ — قبل معركة عدوى

لما حاصر ما كونين قلعة « مكلة » عسكر منليك بجيشه بين القلعة و« ادجرات » ، ولما سقطت « مكلة » وافق على ذهاب الأسرى مقابل مال تدفعه اليه الحكومة الطليانية . وكان رسول كريسبي يفاوض منليك في هذا الشأن . وسافر الموظفون المدنيون أولا الى « ادجرات » ، وبعد خمسة عشر يوماً سافر الجرحى والمرضى على البغال التي أخرجتها الحامية من القلعة لقلة الماء فيها

وقد أظهر النجاشي مقدرة حربيـــة بالاستفادة من سوق

الأسرى . ولم تكن القوة المحتشدة فى ادجرات قليلة ، وكانت القلعة حصينة ، والطريق الذى يصل مكلة بادجرات وعرا ، وعر عضايق حصنها الطليان لسدها فى وجه الأحباش . وكانت الجهة للمرضة للهجوم واقعة الى الجنوب ومسيطرة على الوادى فى انحدار شديد . وكان طول الخنادق حول القلعة ٧٥٠ مترا ، وكانت مواضع المدافع صالحة للرمى على مسافات بعيدة . وبلغت القوة المكلفة بالدفاع عن هذه الجهة ٢٠٫٠٠٠ مقاتل ، وكان التقدم فى هذه الناحية يلقى عراقيل وموانع ، وقد لا ينجح الهجوم على الطليان لمناعة مواضعهم وكثرة مدافعهم ووفرة سلاحهم . واذا استطاع منليك أن ينقل جيشه من شمال مكلة الى عدوى دون علم الطليان فانه يكون قد هدد طريق « اسمره — مصوع » وألجأ الطليان الى الانسحاب من ادجرات ، لأن التقدم من عدوى فى الجهة الشمالية الشرقية يقطع خط الرجعة على الجيش الطليانى

ولكن كيف يستطيع منليك القيام بالمسير الجنبى بهذا الجيش اللجب دون علم الطليان ؟ والأمر يتوقف على الخدعة ، والعرب يقولون : « رب حيلة تغنى عن قبيلة » . وسوق الأسرى وفيهم الجرحى والمرضى من مكلة إلى ادجرات هيأ هذه الخدعة ، فأنبأ منليك القيادة الطليانية بأنه سوف يوفد قوة من جيش ما كونين مع الأسرى لحراستهم . فساقهم يوم ٢٥ يناير على طريق «الهدرتا» ، وفى اليوم الثامن غير طريقهم الى « هوزن » بحجة أن الطريق الأول لا يصلح لسوق المرضى والجرحى ؛ وهكذا تقدم جيش ما كونين على طريق « مكلة — هوزن — ادجرات » وبحراسة هذا الجيش سير منليك جيشه من معسكره الى عدوى . ولما وصل الأسرى الى ادجرات كان جيش منليك فى عدوى والتحق به بعد ذلك جيش ما كونين فاصبح مجموع القوة ٨٠٫٠٠٠ رجل

ولا ريب فى أن منليك أهمل أمر « ادجرات » واهتم بعدوى . والحقيقة أن لخط « ادجرات — عدوى » خطورة عظيمة من حيث السيطرة على مستعمرة اريترة ، أو سد الطرق فى وجه المهاجين لبلاد الحبشة ، لأن الخط المذكور كما سبق القول عر بذرى الجبال التى تؤلف الخط الفاصل بين حوضى نهر مارب ونهر تكاسا . واعتمد منليك على تفوق عدده وتيقن أن الضربة التى ينزلها فى عدوى تفتح له الطريق . وما دام هو فى عدوى فلا يجرؤ الطليان على التقدم فى الجهة الجنوبية الغربية

ولما وصل الجيش الى عدوى احتل الروابى الشرقية وتأهب للمعركة ، فاضطر الجنرال « باراتيرى » أيضا الى تغيير وجهة جيشه . فبعد أن كان متوجها الى الجنوب توجه الى الغرب

ولم يستعجل منليك القتال ، وكانت لديه مهمات أخرى يريد أن ينجزها قبل العمل ، وهى اراحة الجيش ، واحتلال المواضع المسيطرة ، وتسليح الأهلين فى المستعمرة ، وحثهم على الثورة على الطليان . فتظاهر بأنه يريد الصلح ، وشاغل الطليان بمفاوضات الصلح ، لحملهم على البقاء فى ادجرات . وطلب من الحاكم العام أن تجرى المفاوضات على الأسس الآتية :

اعتبار نهر مارب ونهر بلزة خط الحدود ، وتصحيح معاهدة كسلا ، والاعتراف باستقلال الحبشة . وهكذا أظهر للعالم أنه مسالم . بيد أن الجنرال « باراتيرى » أنبأه بأنه غير مفوض بقبول هذه الشروط ما لم يقف على رأى رومة

وفى ١٣ فبراير سنة ١٨٩٦ نجحت تدابير منليك باغراء الأهلين الذين كانوا قد تطوعوا فى الجيش الطليانى مقابل راتب . وفى ١٤ فبراير ترك المتطوعون الجيش الطليانى وانضموا الى الجيش الحبشى وهاجموا قوة الستار الطليانية فى مضيق « اليطا »

وحاول قائد القوة فى هذه الجهة أن يحول دون انضمام المتطوعين الى الأحباش وأرسل وراءهم فصائل طليانية على التعاقب ، الا أن المتطوعين أحاطوا بهؤلاء واضطروهم الى التسليم وساقوهم أسرى الى منليك ، فتشجع الأهلون بذلك وثاروا على الطليان ، واستولوا على طريق « ادجرات — سنافه » ، وقطعوا الأسلاك البرقية ؛ وطفق الطليان يشعرون بحرج الموقف إذ قلت الأرزاق ، لأن الثوار أخذوا يهاجمون القوافل على خط المواصلات ؛ وكانت القوافل تسير بحراسة حاميات قوية ببطء . وأخذ بعض فصائل الجيوش يتقدم نحو أسمرة لعبور نهر مارب والوصول الى « غودفلاسى »

(يتبع) طه الهاشمى

شعراء الرياض

أدب البارودى وشعره

بمناسبة انقضاء مائة سنة على مولده

للأستاذ أحمد الزين

أما وقد تحدثت إليك فى الفصول السابقة عن ألفاظ الشعر ومعانيه ؛ وبينت أن للشعر ألفاظاً ومعانى مختصين به ، لا يشاركه فيهما غيره من الكتابة والخطابة ؛ وأوضحت الفرق بين المعانى الشعرية وغيرها من المعانى البسيطة ؛ ومثلت لجميع ذلك بما أوضحت به الغرض من شعر القدماء والمحدثين ؛ فانى متحدث إليك اليوم عن شعراء الألفاظ فأقول :

قد يفرط بعض الشعراء فى تحسين الألفاظ وتجميل العبارات مع خلو الشعر من المعانى الحية ، والأغراض الملائمة للبيئة ، والتفكير المساير لثقافة العصر ، فلا ترى فى القصيدة على طولها ، بل فى الديوان على ضخامته صورة صادقة منتزعة من حياة الأمة ولا من حياة الشاعر نفسه ، بل يعمد الشاعر إلى معانى سواه من الشعراء المتقدمين فيرددها فى شعره ، ويحشو بها قصائده ، ويحاول أن يخدع القراء عن هذا التقليد بألفاظ يجيد تهذيبها ، ويحسن اختيارها ، ويجرى فيها على مذهب القدماء من الفخامة والجزالة والمتانة ، ومع هذه الفخامة وتلك الجزالة فانك تشعر فى مجموع القصيدة وفى كل بيت من أبياتها ببرودة الموت وسكون الفناء ، كأنك ترى جسماً ميتاً يبدو الجمال على محيّاه ، وما يجدى الجمال مع فقد الحياة ؟ فانه مما لا نزاع فيه أن للمعانى كالذوات الروح أزمنة محدودة تحياها ، وأعماراً معدودة تعيشها ؛ وأن من المعانى ما ينقضى أجله بمجرد انقضاء الحادثة التى قيل فيها ، فاذا قيل بعدها عدّ من المعانى الرثة البالية ؛ ومنها ما يخلد على توالى العصور وتعاقب الأجيال ويظل جديداً على قدمه ، يغالب الزمن بما فيه من عناصر القوة والبقاء ، ويدافع العدم بما فيه من أسباب الحياة ، وذلك اذا تعلق المعنى بغرض عام فى حياة الانسانية جمعاء ، وصلح أن يتخذ مثلاً سائراً بين جميع الأحياء ؛ ومنها ما يخرج من فم قائله ميتاً ، كالسقط الذى لم يستهل صارخاً ، لا يستحق غسلا ولا تكفينا ، لأنه ولد دفيناً ! وكثيراً ما ترى ذلك فى شعر التقليد وقصائد المعارضات التى يجارى فيها الشعراء من تقدمهم من فحول الشعر وأعلام القريض

وبالجملة فمن عيوب الشعر التى لا تغتفر أن يُعنى الشعراء بالألفاظ دون ملاءمة المعانى للبيئة التى يعيشون فيها ، ومسايرتها لثقافة العصر الذى قيل فيه الشعر

ومن هؤلاء المرحوم (محمود سامى البارودى) فقد كان رحمه الله غريباً فى مصره ، وصياغة عصر غير عصره ، ومغرّداً فى روض الملوين بأغاريد العباسيين ، ومُسمعاً دولة اسماعيل وتوفيق ما لا يطرب له غير الرشيد وأنداده من أمراء المؤمنين ، فهو شاعر جاء متأخراً عن زمنه ، بعيد العهد بينه وبين أقرانه وأساتذته من أوائل العصر العباسى إلى أواسط القرن الرابع ، وهم الشعراء الثلاثون الذين اشتملت مختاراته الضخمة على كرائم قصائدهم ، وعيون شعرهم فى أهم أبواب الشعر وأجل أغراضه فى تلك العصور وهى المديح والرثاء والأدب والصفات والنسيب والهجاء والزهد

ولم يزل هذا الكتاب منذ طبع حتى اليوم ينبوعاً صافى المورد ، ومنهلا عذب الشريعة ، يَرِدُه الأدباء والمتأدبون ظماء ، ويَصدُرون عنه رِواء ؛ فكم من أديب نابغ فى هذا الجيل قد تخرّج عليه ، وعَلَم من أعلام البيان العربى كان مرجع بيانه اليه ، وشاعر فحل زكت شاعريته ، ونمت موهبته بالرواية عنه ، والأخذ منه ، ولسان منعقد حُلّت عقدته عطالعته ، وانطلق من وثاق اللكنة بمذاكرته ، وتعلّم صَقْل الألفاظ ، وعلوّ البيان ، واشراقَ الأسلوب بدوام النظر فيه ، ومحاكاة ما يعلق بالذهن واللسان منه ؛ وكم خابط فى ظلمات العجمة استوضح معالم العربية الصريحة ، وملامح الصور الشعرية الصحيحة بضوء مصباحه ، فهذه المجموعة فى حُسن ما اشتملت عليه من قصائد المولَّدين وجَدواها على الأدباء والمتأدبين ، وكثرة من تخرّج عليها من الشعراء المجوّدين ، أشبهُ الكتب بحماسة أبى تمام وإن اختص كل منهما بشعراء عصر ، فمختار أبى تمام مقطعات من شعر العربية الخالصة التى لم يشبها توليد ، ومختار البارودى قصائد من شعر المولَّدين ؛ فحيث انتهى أبو تمام فى حماسته ابتدأ البارودى فى مختاراته ، فهو كالذيل له ، وإن كان

أضيق من الثوب ، وقد كان يقال : إن أبا تمام فى اختياره ، أحسن منه فى أشعاره

وعندى أن البارودىّ يشبهه فى ذلك ، بل هو أولى منه بهذا الحكم الأدبى العادل

فجميع شعره ليس إلا تقليداً لشعر هؤلاء الثلاثين الذين اختار لهم ، ولا نزاع فى أن الأصل أقوى فى بابه من التقليد مهما بالغ المقلد فى احكام عمله ، وتنوق فى تقليده

أما أبو تمام فلم يقلّد أحدا فى شعره ، بل كان إمام مذهب شعرىّ خاص موسوم به ، معزوّ اليه ؛ لم يُسبَق فيه بأحد قبلَه ، وتابَعه عليه كثيرون ممن عاصره أو جاء بعده

وناهيك عما كابده البارودىّ رحمه الله من العناء والجهد فى جمع هذه الدواوين التى كانت تُعدّ فى عصره من نوادر الكتب ونفائس الخزائن ، وذخائر الكنوز الخطية التى لم تصل اليها يد النشر بطبع ولا نسخ ، إذ كان بعضها فى خزائن العظماء والسَّراة يتوارثونها فيما يتوارثون من ذخائر وطرائف لا يعرفون قيمتها ، ولا يدرون ما يُفعل بها ؛ وكان أكثرهم بل كلّهم من أمراء الترك الذين استوطنوا هذه البلاد واتصلوا بملوكها ، إما بالمودّة أو بالقربى أو بالعمل ، واستأثروا بالثروة الوافرة والجاه العريض ؛ وكانوا يحشدون فى خزائنهم تلك الكتب مباهين بعضهم بعضاً فى جمعها ، لا فى نفعها ، وقد آل بعض هذه الخزائن الى دار الكتب المصرية من عهد قريب ، كمكتبة المرحوم طلعت بك وحليم باشا وغيرهما ، ويشهد الله ما فتح أكثر هؤلاء من كتبهم سِفرا ، ولا قرءوا منها سطرا ، وانما كان يُبهجهم ما يرون فى بعض هذه الكتب من النقوش الفنية البديعة ، والصور المتقنة الرفيعة ، ويبهرهم من الكتاب ما يرون فيه من نفاسة الغلاف ، والعلامات الذهبية فى أواسط الصحف أو على الأطراف ، وغير ذلك مما يسترعى الأبصار ، دون الأفكار

ولا يزال بيننا الآن من الناس من لهم كلَف شديد باقتناء الكتب : إما ببذل المال الكثير فى شرائها ، أو باستهدائها من مؤلفيها وجمعيات نشرها ، ويتنوّقون فى تجليدها تجليداً حسناً ، وينقشون أسماءهم عليها بالذهب ، ويرتبونها فى خزائنها ترتيباً متقناً ، وينسقونها فى مواضعها تنسيقاً فنياً يبهج الناظر ، متوخين فى ترتيبها التجانس فى الألوان والأحجام ، دون العلوم والموضوعات ، إذ كانوا لا يفقهون من ذلك قليلا ولا كثيرا ، ولا يدركون من نفعها جليلا ولا حقيرا ؛ معتقدين أن حجرة الكتب مما تتم به مرافق البيت ، كحجرة الزائرين وحجرة الطعام وما إليها ، فان قدم عليهم زائر أدخلوه حجرة الكتب ليرى أثر النعمة عليهم ، بجمع هذه التحف لديهم

وكان بعض هذا الكنز الثمين مدفونا بين أنقاب المساجد وفى كُوَى الزوايا فى حراسة الجهلة من خَدَمها ، يبيعونه لتجار الفرنجة بيعَ يوسف بثمن (بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين)

فتفرّق أكثر هذه الكتب فى العواصم الأوربية ، إما فى مكاتبها العامة ، أو فى الخزائن الخاصة ، والأدباء والعلماء فى الشرق يتلهفون شوقاً اليها ، ويتحرقون أسفاً عليها ، ويسمعون بها سماعهم بأصحابها ، حاسبين انها انقرضت بانقراضهم ، وذهبت بذهابهم ؛ وهى تُختلَس من بلادهم ، وتُنتهَب من بين أيديهم ؛ واللغة التى أشفت على الموت ، وأشرفت على التحدّر ، فى حاجة ماسة الى نهضة كبرى لأحيائها ، وقوام تلك النهضة هو احياء تلك المخطوطات البالية ، بل الآثار الباقية لأعلام البيان وأمراء الكلام من الكتّاب والشعراء ، فلبثت هذه الكتب فى ظلمات الخزائن مئات من السنين تتعاقب عليها الحِقب والأجيال ، ويتضافر على تعطيل الانتفاع بها الجهل والاهمال ، وتنتفع الجرذان والأرَضَ بأكلها ، أكثر مما ينتفع الأدباء والعلماء بفضلها ؛ حتى أتاح الله لها ذلك الأديب النابغ ، والشاعر الفذ ، فتولى نظارة ديوان الأوقاف ، وجمع ما بقى من هذه الكتب فى مخابئها ؛ وكان هذا هو بدءَ العمل فى إقامة دار للكتب فى مصر

ولا يغيبنّ عن ذهنك أن ما بذله ذلك النابغة رحمه الله من الجهود المضنية فى الظفر بتلك الدواوين التى جمع منها مختاراته ، لم يكن بأكثر مشقة مما عاناه من التعب المُمِض ، والنصَب المُقِضّ ، فى تصحيح ما أفسدته أيدى الجهلة من النُّساخ بل للنُّساخ من ألفاظها ، وإصلاح المحرّف من كلمها ، وتكميل الناقص من أبياتها ، وإعادة البهاء والرونق إلى ما شوه الجهل من جمالها ، ومسخ من صُورها ، وطمَس من معالمها ، وإن أيسر ذلك لمما يستنزف الجهود ، ويستنفد الزمن الممدود ، والعمر المحدود ؛ فانك لا تكاد تفتح أحد هذه الدواوين المخطوطة



صور من هوميروس

١٨ – حروب طروادة

مصرع هكتور . . .

للأستاذ دريني خشبة

اختلط حابل الطرواديين بنابلهم ، وظلوا يهرعون إلى الأبواب حذر الموت الذي يتلقفهم من شمائلهم وعن أيمانهم ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ، كأنما جثمت المنايا في كل خطوة فهي لهم بالرصاد . . . طالما يكر أخيل هنا ويفر هناك ، وتكر من خلفه وتفر شياطين الميرميدون ، صائحين متهدجين : « يا لَثارات بتروكلوس ! »

ووقف أبولو وهو يتميز من الغيظ يشهد المركة ، ويرى إلى أخيل يحصد تلك الرؤوس اليانعة التي لم يحن بعد قطافها ، فلم يملك أن دنا منه وقال :

« على رسلك يا ابن بليوس ، فكأني بك ما كفاك من صرعت حتى لتحدثك نفسك بقتال الآلهة ، وتحاربني أنا من دون أرباب الأولمب خاصة ! ولكن هيهات ! فانك لا بد يوماً ذائق الموت الذي لن يذوقه إله في الأرض ولا في السموات ... فاقصد في تقتيل هؤلاء الأبرياء ، ولا يغرنك نصر قد تكون في آثاره هزائم . . . . . »

وعبس أخيل عبوسة قاتمة ، ثم نظر إلى أبولو مُغضباً وقال : « حسبك يا سيد الشمس ما ضيعت من جهود ، وما فوّت عليّ من ثارات ... أعرج في سمائك الشاسعة ، ودع بني الموتى يصطرعون من أجل المجد والشرف ... لقد أنقذت خصمي من قتلة محققة ، فهل يا ترى تظل يا سيد الشمس تعترض طريق الأقدار ، ليمرح في كنفك الفجار الأشرار ؟ . . . »

وانطلق أخيل يعدو في إثر هكتور ؛ وكان هكتور قد أخذته

حتى ترى ظلاماً كثيفاً من التحريف والتصحيف قد غشيَ جميع صحفه ، وخيّم على جميع سطوره ، فلا يبدو لعينيك في وسط هذه الظلمة من شعاع الصواب ، إلاّ كما يبدو ضوءُ الشُّهُب من خَلَل السحاب ، ولا تكاد تقرأ سطراً خالياً من عدة كلمات محرفة ، أو مصحفة ، غير مستقيمة المعنى ولا واضحة الغرض ، يحتاج إصلاحها إلى زمن طويل ، وبحثٍ غير قليل ، وذهن غير كليل ؛ وتحفُّظ من الخطأ ، ودقة في الذوق الشعريّ ينفذ بها القارئ إلى وجه الصواب ؛ وحُسنِ اختيار في المحو والاثبات ، وتفهُّمٍ دقيق لما يقتضيه سياق الكلام من المعاني والأغراض ، ومعرفةٍ بأساليب الشعراء ومصطلحاتهم في كل عصر ، ليكون المحو والاثبات تابعين لما تقتضيه هذه الأساليب وتلك المصطلحات وخبرةٍ واسعةٍ بالكتب اللغوية والأدبية ، وأغراض كلٍّ منها ، ومكان الفائدة منها ، ثم إعمال الذهن بلا كلال ، وإجهاد الفكر بلا سآمة في الألفاظ المحرفة ، والعبارات المغلقة ، التي لم يستقم معناها على وجه من الوجوه ، بتقليب حروفها بين التحوير والتغيير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والزيادة ، والاعجام والاهمال ، حتى يستقيم المعنى ويتضح الغرض مع الأمانة التامة على الأصول ، وعدم الخروج عنها إلاّ بالقدر المعقول .

هذا قليل من كثير من المشقات التي يعانيها الناظر في أمثال هذه الدواوين ليختار منها مجموعة ضخمة مصححة أقوم تصحيح كمختارات البارودي

أما شاعرية البارودي فستحدثك عنها في العدد المقبل

أحمد الزين

العزة فأبى أن ينجو بنفسه فيدخل المدينة مع الداخلين

وكان بريام ، الملك الشيخ ، يشرف على الساحة الحمراء من أحد أبراج مدينته ، فرأى ابنه واقفاً فى إحدى حنيّات الأسوار يستجم ، ويرسل فى رَهج الميدان عينين سادرتين محزونتين ، تشفان عن قلق عميق ، واضطراب دوى ، فريع الأب الفئود ، وزلزل زلزالا شديدا ، وطفق يئن أنيناً عالياً ، ويضرب صدره الموهون بيديه الواهيتين ، ثم يصيح بابنه أن يسارع إلى البوابة الأسكائيـة قبل أن يلحق به أخيل ، عسى أن ينجو مما يتربص به من منون ...

« أى بنى ! هكتور ! فيم تقف فى هذا الميدان وحدك تنتظر الطاغيـة أخيل عليه لعنة السماء والآلهة ، بقتله بنىّ ، واهداره دماء مواطنىّ !

هلم يا بنى لحسبى ما جزعت على پوليدور ، وحزنت أمض الحزن وأوجعه على ليكاون ، وحطم قلبى من الأسى على أبناء إليوم ! ...

هلم يابنى فأنت أمل طروادة ومعقد رجائها ، وليس لها بعدك من ولى ولا شفيع !

هلم فأبوك الشيخ قد صدعه الحزن ، وأوقرت ظهره ويلات الحرب ، وأغطشت عينيه أرزاء هذا البلاء ، فلا تكن أنت محنة المحن التى تحل به ، واستبق شبابك له يَتَّسلْ بك ، ولأمك المفجّعة تستلهم بقربك الصبر ، على ما كرثها الزمن الصارم من نكبات يلاحق بعضها البعض ، وتأخذ أولاها بتلابيب أخراها مشرق كل شمس ، وكلّ مغيب شمس

هلم يا هكتور إلىّ ! إلى والدتك ! إلى زوجك ! إلى طفلك الذى تكاد تسلمه لليتم ، وتدعه خلفك للشقاء ! ...

هلم وحسبنا أرامل شجعاننا اللائى يحلن إشراق أيامنا ظلمة ، ويصبرن لألاء الحياة قتاما ... أو يرسفن فى أغلال الاستعباد حيث يقمن فى خدمة الاغريق الأوغاد ... !

هلم إلىّ يابنى ! فو أرباب الأولمب إنى لأرتعد فرقا كلما خلتك ملقى بالعراء تنوشك سباع الطير ، منبوذاً لضوارى هذه البرية التى طالما أطعمتها وأكرمت مثواها ... »

وصمت الملك ، ورآعه أن ابنه لم يتحرك لتوسلاته ، بل لبث مكانه يرمق الميدان فراح يضرب يدا بيد ، ثم انحنى فجعل يحثو التراب على رأسه الجلل بتاج الشيب ، ونَدَف الأيام ، وبهذه الشملة البيضاء التى زادتها أحداث الزمان اضطراماً ...

وكانت هيكوبا إلى جانبه ... هكيوبا مليكة إليوم ، ... هكيوبا الأم ... التى فجعها أخيل فى عدد من أعز أبنائها ، ويحاول اليوم أن يفجعها فى هكتور ، ابنها البكر ، وتاج الأمومة الوضّاح ، الذى تفخر به كل أم ، وتدل به كل والدة !

وقالت الأم الباكية تخاطب هكتور : « هلم يا ولدى فانك وحدك لا تستطيع أن تكبح جماح هذا البحر الزاخر من الجند ، بل لو أن معك ألفاً من شجعان طروادة ما وسعهم أن يردوا عادية هؤلاء الميرميدون المقنعين فى حديدهم ، الكثيرين فى عديدهم

هلم يا هكتور واستبق شبابك وعنفوانك لأمك المحزونة التى لم يبق لها من ولد غيرك ، ولا عز إلا فى جوارك ، ولا حمى إلا فى كنفك ، ولا مجنّ يرد عنها عوادى الأيام إلا فى ظلك ، ولا فخر لها بين النساء إلا فخرك ، وما تمد الآلهة فى أمدك ، وتشد به أزرك ... ...

هلم يا بنى فقد أزعجتنى الرُّؤى ، وروعتنى الأحلام ، وجثمت فوق صدرى أشباح هذه الساحة التى تفتأ تلبس الحداد وتخلعه وتغرى بالنصر ثم تنزعه ، وإن سرت بطلا بفوز تنكص فتفجعه ، فتفقد أخلمه وتمزج بدمه أدمعه ... ... »

وكانت الملكة ، كما كان الملك ، تمزج توسلاتها إلى ولدها بأغلى الدموع ، وأحر الآهات ؛ بيد أن هكتور ظل مسمرا مكانه كالحية الرقطاء التى تتحوى وتتكوم فى انتظار طار تنقض عليه ؛ وكان يمنى نفسه أن يأخذ أخيل على غرة ، فيريح طروادة منه ، ويضفر لنفسه بنفسه إكليلاً من المجد لم يزن مفرق بطل من قبل

وكانت توسلات أبويه تتناثر فوق أذنيه ، ولا يصغى لها قلبه ، بل هو قد ظل يحلم فى يقظته أحلاماً معسولة ، كانت تطن فى خلده هكذا : « ضلة لى إذا ثنيت عنانى إلى المدينة ألوذ بها من أخيل ، فأرسف أبد الدهر فى حضيض العار ، وأطأطئ حياء كلما لقيت طروادياً يهمس فى أذن أخيه : إن هذا هكتور الذى ولى دبره ، ونكص على عقبيه ، ولم يجرؤ أن يلقى أخيل بمفرده فى

الميدان ... وأين أذهب من غادات اليوم وحرائرها إذا أنا وليت الأدبار ، وها هن مشرفات على الساحة يرين ماذا يكون من أسرى مع ابن بليوس الذى تفزع الآلهة من ضرباته ، وتمور الأرض تحت عجلاته ، وتنعقد عجاجة الوغى فوق رأسه فى حين يبرز منها كالكوكب الدرى ! حشاى أن أعود أجرر أذيال الخيبة ، فاما أن ألقاه فأريح الدنيا قاطبة من شره ، وإما أن يريحنى هو من هذا الهم المقيم فأنفنى فى سبيل بلادى ومن أجل مملكتى ...

ثم نيم صراخ أبى وعويل أمى ؟ أيرجوان أن أدخل إلى المدينة فأ كون بنجوة من الموت الشريف فوق أديم الميدان ساعة ، ثم يفتحها أخيل على ، فيذبحنى كما يذبح شاة لا حول لها ولا طول ، أو يضع الأغلال فى عنق ويجرنى فى شوارع (إليوم) كما تكون أذن الجارية فى يد النخاس بسوق الرقيق ؟ !

« حاشا ... بل خير لى ألف مرة أن أخوض غمار المعمعة ، ما دام لن يضيرنى إلا ما حتمت الأقدار على ... »

وما كاد يفيق من أحلامه حتى كان أخيل أمامه وجهاً لوجه ، وعلى كتفه الرمح المرقل ومعه الظافى المتيـــد ، وفوق صدره العريض المرد سوابغ دروعه التي سردها الإله الحداد فلكان ، تنعكس عليها آلاف وآلاف من آراد الشمس فتبهر الأبصار وتخلع الأفئدة ، وتذيب فى الجوارح كهرباء الرعب ، وتشعل فى الرؤوس ضرام الشيب ! !

وزاغ بصر هكتور ، واضطربت مفاصله ، ونُخبَ قلبه ، واستُطير لبه ، وأحس كأن جبلاً ينحط على روحه فلا يكاد يقلها ، وذاب الثلج فى عروقه فجمدت من الروع والفزع ، وهزته قشعريرة طفقت تعصف بكيانه الضخم ، وتلعب بفؤاده الونى ...

ثم بدا له أن يلهب جياده فتفر به من وجه أخيل ، ولكن إلى أين ؟ إنه حيثما تولى فثم وجه أخيل ! ! إن أخيل غدا آلافاً لا حصر لها من الأشباح الفزعة تملأ الساحة وتكظ الهواء ، وتأخذ على الطروادين أنفاسهم !

وانطلق ابن بليوس فى إثر هكتور ، وأشرف عذارى اليوم يطللن من أبراج المدينة الخالدة وعكن حبات قلوبهن أن تثب إلى الميدان فتطأها سنابك تلك الجياد الجوامح . وكان كلما أغذ

هكتور أوخف أخيل فى أثره ، فكانا كالأبدين : لا الليل يدرك النهار ولا النهار يستأنى فيدركه الليل ، حتى نال منهما الجهد ، وتفزعت الآلهة فى علياء الأولمب اشفاقاً على ابن بريام المعظم ، ورثاء لابن بليوس المتهدج ، ورحمة لهذه الأرض المضرجة بدماء الشهداء

وهم سيد الأولمب أن ينقذ هكتور ، لولا أن أقنعته ابنته ، مينرفا ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، فنحته من طريق الأقدار وأحلت بين أخيل وخصمه ...

وطافا حول طروادة ثلاثاً ، وما كادا يبدآن طوافهما الرابع ، حتى قبض زيوس إليه ميزان القدر ، فهوت كفة الحق بقتل هكتور ، واربد وجه أبولو وسقط فى يده ، وانطلق يضرب أخماساً لأسداس ... !

وأسرعت مينرفا إلى أخيل تزف إليه بشرى السماء ، وآثرت له أن يتلبث مكانه يستجم نشاطه ، ويتنفس الصعداء ، حتى تذهب هى إلى هكتور تغريه بلقاء خصمه ، وتنفره من هذا الفرار الذى أضحك منه قيان اليوم وحسانها ...

واستخفت مينرفا ، وبدت لهكتور فى هيئة أخيه الأصغر ديفوبوس ، ثم راحت تحضه على الحرب ، وتحرضه على أخيل ، وتهون له من شأن زعيم الميرميدون ، وتمده أنها ستقدم له كل عون حتى يظفر به وتنصره السماء عليه نصراً عزيزاً ...

ولم يشك هكتور فى أن الذى يخاطبه هو شقيقه وحبيبه ديفوبوس ، فوقف قليلا ليفرج عن قلبه بعض ما كربه من روع ، وراح يزجى شكرانه لأخيه بدموع الفزع ، وذلة العبارات المتقطعة الحزينة ، وخفقان القلب المضطرب ذى الوجيب !

وانثنى هكتور للقاء أخيل ...

فما كاد ابن بليوس يشهده مقبلا ، بعد إذ كان مدبراً ، حتى طرب قلبه ، وشاعت بشاشة اللقاء فى زنده القوى وسواعده المفتولة ، ثم انقلبت هذه البشاشة إلى جهنم من الغيظ تستعر بالتشوف إلى الانتقام فى فؤاده ، وتضطرم بلظى البطش فى سويدائه ؛ وتطل من عينيه تود لو تنقدح فى أضالع هكتور ... !

وقال هكتور : « تخدع نفسك يا أخيل إذا ظننت أنى كنت ألوذ بأذيال الهرب منك ، حين أجريتك هذه الأشواط الثلاثة

حول إليوم ... ؟ ! لا ... فانى ما حاولت إلا إجهادك ، وأن ينال الاعياء منك ... والآن ، هأنذا قد انقلبت للقائك فاما أن أقتلك ، وإما أن تروى رمحك الظامئ من دمى . من يدرى ؟ أليست الأقدار مطوية عنا فى صحائف الغيب ، لا يعلمها إلا سيد الأولمب وكبير الآلهة : زيوس جل شأنه !

بيد أننى أطمئنك من الآن يا أخيل ، إن أظفرتنى السماء بك ، فلن أفضحك فى هذه المدة السابقة من فوتك ، ولن أنزع عنك تلك الدروع الضافية التى لن تنفعك من المقادير من شىء ... ثم أعدك أيضاً ألا أفضحك بعد موتك فى هذا الجسم العزيز الذى سيكون بعد قليل جثةً لا نأمة فيها ولا حياة .... لن أرسل بك إلى عراء طروادة فأنبذك فتأكل الطير منك ، وتنوشك سباع البرية الموحشة التى تعج بالضوارى والكلاب .. لا ... لن أفعل من ذلك قليلا ولا كثيرا ... بل سأترك لجنودك البواسل أن يحملوك الى سفائنك عزيزا فى قتلتك ، كما كنت عزيزا فى مماتك

والآن يا ابن بليوس ! هل تعدنى الوعد الذى وعدتك ، وعل تعاملنى بمثل ما أنا معتزم أن أعاملك ، إن أظفرتك السماء علىّ .. .. ؟

وتزلزل الأرض تحت عربة أخيل مما سمع من مهاترة ابن بريام ويقذفه بشُواظ من الكلم المحنق والقول المضطرم ، ثم يقذفه بصمدته القاصمة التى تمرق الى هكتور كالبرق الخاطف ، لو أصابت منه عضواً لذهبت به الى الجحيم . . .

ولكن هكتور العظيم ينفتل انفتالةً عجلى ، فيهوى رمح أخيل الى أرض الساحة ، ويغوص ثمة الى ثلثيه ... إلا قليلا

وكانت فرصة طيبة لهكتور ينفرد فيها بخصمه الأعزل ، لو لم تكن ميترفا حاضرةً ، وعلى أهبة تامة لمعاونة أخيل .... فلقد سارعت الى الرمح فانتزعته من الأرض ، وسلمته لصاحبه دون أن يلمحها هكتور . . .

وقبل أن يتهيأ لها أن تصنع ذلك ، قال ابن بريام : « أخيل ! ها قد طاشت ضربتك ، وآن لطروادة التليدة أن تسترح منك يا ألد أعدائها ! ! لقد كنت تحدث نفسك برأس هكتور ؛ غريمك وخصمك ، فلتبحث الآن عن رأسك يا ابن بليوس....

ولم يكد البطل المسكين يتم قولته ، ويضيع بها فرصته ، حتى كانت ميترفا قد أعادت الرمح الى أخيل . .. وحتى تبسم أخيل ابتسامة لاذعةً ساخرةً بما قال هكتور ، الذى داعب هو الآخر رمحه ، ثم أرسله كأنه الحتف فارتد على درع فلكان ، ومنه الى الأرض ، فغاص فيها ؛ وقبل أن يلحق به هكتور حال أخيل بينهما ، وأصبح الموت أقرب اليه من حبل الوريد ؛ وتلفت ابن بريام يبحث عن أخيه ديفوبوس فلم يعثر له على أثر ، فصاح من الوجل يقول : « يا ديفوبوس ! يا ديفوبوس ! أغثنى يا ديفوبوس ! أدركنى يا ديفوبوس ! هات لى رمحاً يا ديفوبوس ... ... »

بيد أن ديفوبوس لم يغثه ولم يدركه ولم يحضر له رمحاً ، وبدت له ميترفا وهى تبتسم ابتسامةً خبيثةً زلزلت أركان هكتور ، الذى فطن إلى الحيلة التى دخلت عليه ، فقال يخاطب الربة الساخرة ، وهو يكاد ينشق من الغيظ : « يا للسماء ! أهكذا تخاتل الآلهة ، فتقضى بموتى فى معركة لا أحمل فيها سلاحاً ... ولكنى سأقاومك يا ابن بليوس ، فاذا سقطت فلن يكون لك فى ذلك فضل ولا محْمدة ، واذهب من بعدها فصلّ للخاتلة التى نصرتك وآزرتك . . . »

وامتشق المسكين سيفه ، ولكن ماذا يصنع الجرازُ البتار فى ملحمة لا يقطر الموت فيها إلا على أسنة الرماح ! . . .

لقد انقضّ أخيل على نغر طروادة وأملها المفخور فعاجله بشكةٍ من رمحه الظامئ نفذت فى عنقه ، وهوت به إلى أديم الأرض المقدسة التى طالما دافع عنها مع جنوده البواسل الكرماء . . .

... « هكتور ! اليوم شفيت حزنى الممض على بتروكلوس ... واليوم تذهب روحك إلى ظلمات هيدز غير كريمة ولا محمَّدة .. يا كلب طروادة المذؤوم !! كم كنت تمنى نفسك لو تظفر بى فتنبذ جثتى بالعراء لوحوش طروادة وجوارح طيرها . . . ألا حدث نفسك الآن ماذا صنع القدر بك . . . ! »

ويتهدج هكتور قائلاً : « أخيل ! يا ابن بليوس العظيم ! استقسمك برأسك الرفيع ، وأبويك الحبيبين ، ألا تأخذ جثتى فتنبذها لكلابك ، وتعفر جبينى الحر بثرى الذلة بين أصحابك ، وحسبك أن الآلهة قد أظفرتك بى ، وأن المقادير السوداء قد أنلتك علىّ »

فيقول أخيل ، وقد زهاه النصر على ألد خصمائه : « اطمئن ياهكتور ، فكلانا لا تستطيب إلا جزر الأبطال ، وستكون لها وليمة فاخرة . . . فو رأس أبيك لو ملأ لى بريام هذه الدنيا ذهباً على أن أخلى بينه وبينك ، ليعود بك إلى إليوم ، ما رضينا بك بديلاً . . . »

وتكون سكرة شديدة من سكرات الموت جائمة فى صدر هكتور تعذبه وتضنيه ، فيتأنى قليلاً حتى تنجاب عنه الحشرجة ، ويفتح عينيه ويقول : « أخيل ؟ لا تغترنا تم لك من نصر ؛ فباريس أخى سيقتص منك لى ؛ وسيرميك من أبراج طروادة بسهم يعجل بك إلىّ . . . فى هيدز . . . وثمة سنلتقى ! »

ويموت البطل . . .

وتنطوي صحيفة مجيدة من صحائف طروادة . بل تنطوى أنصع صفحاتها جميعاً ، بموت هكتور

يا عجباً ! !

هل كان كتاب الغيب مفتوحاً أمام هكتور يقرأ منه عند ما أنذر أخيل بسهم باريس ؟ !

* * *

وازدحم الهيلانيون حول الجثة يطعنونها ويصلونها كلوماً عجزوا عن إيصالها إلهاحية فأبوا إلا أن يصلوها بها ميتة . . .

ونزل أخيل من عربته ، فانحنى على الجثة ، ونزع عنها تلك العدة المزرزة التى نزعها هكتور عن جثة بتروكلوس . . . عدة أخيل . . . فلن تكون بعد اليوم إلا لأخيل !

واستل ابن بليوس خنجره ، وأهوى على عَقِبَىْ هكتور فخرمهما ، وربط القدمين المزرتين فى مؤخر عربته الحربية ، ثم ألهب جياده فهامت على وجوهها فى الساحة ، وطفقت تطوبها مثنى وثلاث حول إليوم ، والرأس المظيم يتعثر بثرى الدممة القاحلة ، والطرواديون فوق الأسوار ينظرون ولا يحيرون . . . إلا هذا الملك الشيخ . . . بريام الذهول . . . الذى راح يملأ الفضاء أنيناً موجعاً ، وشجواً مفزعاً ، . . . وإلا هذه الأم الرزأة . . . هكيوبا الملكة . . . التى راحت تحثو التراب فوق رأسها ، وتتقلب فوق الأرض كالطائر المذبوح . . .

أما أندروماك . . . فلها السماء . . . ولها الآلهة ! !

لقد كانت تضفر أفواف الزهر لقاء هكتور ، وترشق الورود فى أرائك المخدع ، وتعد الحمام الساخن لغسل ثرى الميدان . . . ولم تكن تفكر قط إلا فى عودة البطل مخضب الذيل بدماء الأعداء . . .

ولكنها سمعت لغطاً وضوضاء يرتفعان فجأة خارج القصر . . . وكأن هاتفاً من السماء هتف بها أن تخرج لتستجلى النبأ . . . ولكنها أيضاً شعرت بقوة خفية تدفعها إلى البوابة الأسكائية . . . حيث وقف بريام يبكى ولده . . . فما كادت تصل ثمة وتشهد هذا الجمع المحزون يذرى دموعه . . . وما كادت تطل من شرفة البرج فترى إلى هكتور مربوطاً فى عربة أخيل ، وأخيل الجبار يطوى به الساحة ، ويذرع به الميدان . . . حتى وجفت نفس الزوجة البائسة ، وخرت إلى الأرض مغشياً عليها . . .

* * *

وأفاقت أندروماك التاعسة . . .

وطفقت تبكى زوجها وترثيه بالهم

وطفقت نفسها تساقط عليه أنفساً ! ؟

لها بقية

دريني خشبة

حادث انتحار

بقلم حسين شوقى

عند ما دقت الساعة الثانية صباحا ، كان بار « الدب الأبيض » خالياً من خدمه ورواده ، عدا رجلين : أدولف الخمار الشيخ الذى ذهب إلى داخل المحل لتصفية حسابات اليوم ، وشاب جلس فى ركن منزو يشرب ويكتب ؛ ولم تمض فترة قصيرة على انزواء أدولف حتى سمع دوى رصاص فى البار ، فعاد مهرولا ، فوجد الشاب قتيلاً على كرسيه ، قتل نفسه بمسدس كان لا يزال بيده اليمنى ... فحصه أدولف فوجده قد مات من فوره ، بينما السيجارة التى كان يدخنها لا تزال مشتعلة .. وقع أدولف فى حيرة من أمره ، ثم أخذ يصخب ويلعن ، ثم جعل يخاطب نفسه قائلاً : ألم يكن الأجدر بهذا الأبله أن ينتحر فى بيته ؟

علام يزعج الخلق هكذا ؟

ثم فكر أدولف متحسراً فى النوم الذى لن يذوقه الليلة . إذ عليه أعمال كثيرة ... إخطار البوليس بالحادث ، وانتظار التحقيق القضائى الذى سوف يدوم ساعات ... وعلى رغم هذا شعر أدولف بشىء من العطف عند ما نظر ثانية إلى وجه القتيل لأنه كان شاباً بين العشرين والخامسة والعشرين ، ثم تنهد قائلاً :

إنه لم يحن أوان موته بعد !

إن الشباب يجاب العطف دائما ، وبخاصة من جانب الذين فقدوه أمثال أدولف ، أو من جانب الذين فقدوا أشخاصا يعزونهم ماتوا فى ميعة الصبا ، أمثال أدولف أيضاً ، الذى فقد فى العام الماضى ابنة لم تبلغ العشرين بعد ...

وبعد أن أخطر أدولف البوليس بالحادث رجع عند الجثة ، ثم أخذ يحدق فى وجه القتيل ! إنه لا يعرفه أبداً ، فلقد كانت هذه زيارته الأولى للبار ... ثم رأى أدولف ورقة مكتوبة أمام الشاب فتناولها مدفوعاً بحب الاستطلاع ، فقرأ ما يأتى :

الموقع على هذا (س) . . المولود فى . . والمقيم فى . . يقدم اعتذاره إلى صاحب بار الدب الأبيض من القلق الذى سيسببه له بعمله هذا . إن (س) يأسف لأنه لم يستطع أن ينتحر فى بيته كما كانت تقضى بذلك اللياقة ، لأن صاحبة الفندق الذى يقيم فيه سيدة عجوز مريضة بالقلب ، فأى انفعال يقضى عليها ؛ وإذا كان (س) قد اختار البار لفعلته ، فلكى يستطيع أن يتناول بضعة أقداح من « الويسكى » تنعشه فى رحلته الطويلة المظلمة . . ومع ذلك فإن (س) واثق من أن هذا الحادث سوف يعوض لصاحب البار ما أصابه من ضرر ، يعوضه بالاعلان الذى يعمله هذا الانتحار للمحل . . إن (س) لا يأسف كثيراً على مفارقة الحياة لأنه لم يعد يملك شيئا ، والحياة بلا مال ، أمر فى نظره من جرعة ملح . . ثم (س) فوق ذلك لا يثق بالمستقبل ، ولا بنفسه ، فهو يعلم أنه لا شىء ، وأنه لن يصير فى يوم من الأيام رجلا مثريا . . ومع ذلك فإن (س) لم يخلف ديونا . . بل لا يزال فى حجرته بالفندق بضعة جنيهات ، وهو يهديها الى جمعية الرفق بالحيوان ، لأنه لا يحب أن يخلف شيئاً لبنى جنسه ، إذ هو يحتقر الطبيعة البشرية ، ولا يستثنى منها نفسه . . إذ لم يكن ملاكا فى الحياة الدنيا ، بل كان كغيره مخادعاً . . بل (س) يأسف لأنه لم يحسن الخداع فى الحياة ، لأن الحياة فى نظره كلعبة « البوكر » لا يربح فيها إلا البارع فى الخداع . .

ومن الأسباب القوية لانتحار س أيضاً ، أن ضميره لم يكن مستريحا ، فقد كان سببا فى وفاة فتاة فى العام الماضى فى ريعان الصبا ، ماتت كمداً لأنه وعدها بالزواج ولكنه لم يف بوعده ، لأنه فقير لا يستطيع أن يتزوج ، وهو لا يعترف بالحب مع البؤس . كم ود (س) أن يتناسى هذا الحادث ! ولكن ماذا يفعل فى ذلك الشيطان الصغير الذى يقطن داخل جسدنا والذى أخذ ينغص عليه الحياة من أجل هذا الحادث ؟ ... لهذا نجد (س) غير نادم كثيراً على مفارقة الحياة ... وبهذه المناسبة يطلب (س) الصفح من هيلانة (وهو اسم الفتاة) ...

ولكن أدولف الخمار لم يكمل قراءة الورقة ، بل قذف بها صارخا : آه من الوغد ! مسكينة هيلانة !

فلقد كانت هذه الفتاة ابنته . .

حسين شوقى

البريد الأدبي

كتاب عن التاريخ الحبشي

وهذا أيضاً كتاب جديد عن الحبشة . والحبشة ومسائلها ومصايرها تثير اليوم أعظم الاهتمام والعطف . وقد صدرت عن الحبشة في الآونة الأخيرة كتب ومؤلفات عديدة أشرنا إلى بعضها في هذا المكان من «الرسالة» . واليوم نشير الى مؤلف قيم جديد هو تاريخ الحبشة بقلم الأستاذ جونس والسيدة مونرو Abyssinian History ؛ وهو عرض قيم جدا لتاريخ الحبشة منذ أقدم العصور الى الآونة الحاضرة ؛ ويمهد المؤلفان بوصف شائق للحبشة وشعوبها وأصولها ؛ ويتلو ذلك الحديث عن عصر الأساطير في التاريخ الحبشي ، وهو حديث يدعمه التدليل التاريخي ؛ «كان ملوك الحبشة حتى القرن الرابع من الميلاد وثنيين ، يرجعون أصلهم إلى « مهرم » وهو إله الحرب . أما أسطورة ملكة سبأ فقد نشأت بعد القرن السادس ؛ ومن المرجح أنها نشأت في العصور المظلمة التي تلت قيام الاسلام في جزيرة العرب . وحرمت الحبشة من الاتصال بالعالم النصراني »

وقد اعتنقت الحبشة النصرانية في القرن الرابع ؛ وكان ملوك الحبشة يومئذ يعيشون في بذخ همجي ، وما زالت مسلات أكسوم تدل على ذلك العصر . وفي « عصر الحبشة المظلم » وهو الذي يعرضه القسم الثاني من الكتاب ، احتل العرب والمسلمون شواطئ البحر الأحمر وسحقوا حركة القرصان الأحباش ، وقطعوا الحبشة عن العالم الخارجي ، وفي ذلك العصر ازدهرت أسرة « زاجوي » واستمرت في الملك حتى سنة ١٢٧٠ م ، ثم عادت الأسرة السليمانية التي تزعم أنها سليلة ملكة سبأ وسليمان . وبدأ تاريخ الحبشة الحديث ؛ وكان للحبشة ديوان تحقيق (محكمة تفتيش) تطارد الملاحدة ورئيسها زرعة ابن يعقوب

ويتناول القسم الثالث من الكتاب أسطورة « القس جون » وسفارة البرتغال ، ووصف السفير البرتغالي القادم للحبشة يومئذ (سنة ١٥٢٠) وهو أدق وأقيم وصف لحالة الحبشة في أوج مجدها وحضارتها قبل أن تنحدر إلى عصر من الضعف والفوضى . وكان ملك الحبشة يعيش يومئذ في معسكر متنقل وليس له عاصمة ثابتة ؛ وقد انتهت هذه السفارة الشهيرة بتنازل الامبراطور عن مصوع للبرتغال نظير توريد السلاح وإرسال الأطباء ؛ ولكن النتائج المرغوبة لم تتحقق لأن الترك عبروا البحر الأحمر يومئذ ، وغزوا الحبشة ؛ ولكنه غزو لم يطل أمده ؛ ووقعت الحبشة في عصر من الفوضى

ويتناول القسم الرابع عصر « العزلة والفوضى » ثم يتناول القسم الخامس تاريخ الحبشة الحديث ، ونزاع الأسر على العرش وظهور طلائع الاستعمار الأوربي ، وحملة السير نابيير وانتحار الامبراطور تيودور ؛ ويتناول القسم السادس والأخير مسألة النزاع الايطالي الحبشي في سنة ١٩٣٥ ، وتطوراتها المختلفة حتى أغسطس الماضي

وقد كتب الكتاب بأسلوب سلس قوي يحفز القارئ ؛ والكتاب قيم مدعم بالوثائق التاريخية ، ويعتبر من أنفس ما كتب عن الحبشة في الآونة الأخيرة

كتب بالمزاد !

أذيع أخيراً في القاهرة نبأ بيع مكتبة فخمة لأحد الكبراء ، تحتوي على طائفة كبيرة من المجموعات والكتب القيمة : والمطبوعات النادرة ، وكان البيع بالمزاد طبعاً ، فهرع إلى مكانه حشد من العلماء وهواة الكتب والآثار النادرة ، وبيعت في اليوم الأول طائفة حسنة من الكتب والمجموعات ، ولكن لوحظ أنها بيعت بالأخص لجماعة من الهواة الذين يأسرهم جمال الطبع والرونق قبل أن تغريهم البواعث العلمية ؛ ورأى الحاضرون من العلماء والخبراء الذين يعرفون قيمة الكتب ويحسنون تقدير أثمانها أنهم لا يستطيعون الشراء في هذا الجو

الشبع بتنافس الهواة ، فلم يشتروا سوى القليل . ذلك أن قليلاً جداً من الكتب المعروضة بيع بثمن المثل أو أقل قليلاً ، ولكن معظمها رسا بأثمان فاحشة كانت تصل أحياناً إلى أضعاف القيمة الحقيقية ؛ وكانت ثمة عوامل وأصوات مريبة تتدخل في المزايدة في ظروف ووقفات خاصة ، فترفع الأثمان بنسب مدهشة حتى يتقدم أحد الفرائس من الهواة فيلقى عليه السبء المنشود

وبعد أيام قلائل كان بيع القسم الثاني من هذه المكتبة الشهيرة ؛ فكان أول ما لوحظ أن معظم الذين حضروا في الدفعة الأولى لم يحضروا هذه المرة . ألم تتضح لهم الحقيقة بعد أن غادروا قاعة المزاد ، وتساءلوا عن القيم الحقيقية للكتب التي اشتروها في هذا الجو المكهرب ؟ وكان قد عُرف خلال ذلك أن المكتبة المعروضة ليست لكبير ولا وزير وإنما هي ملك لأحد تجار الكتب المعروفين الذين أزعجتهم الأزمة ، فعمد إلى تصريف كتبه بهذه الوسيلة ، وفي هذه الجلسة أيضاً ازدادت العوامل المريبة والمصطنعة ظهوراً ، وتصاعدت أثمان الكتب المعروضة إلى نسب فاحشة حتى أن كثيراً منها كان يباع بأضعاف ثمنه جديداً ، وزاد يقين العارفين بأنهم يجلسون في شرك منصوب ؛ ولكن حدث كما حدث في الجلسة الأولى أن توالى سقوط الهواة في هذا الشرك

ولقد كان درساً لمن حدثته نفسه بالظفر بنصيبه من هذا الكنز بالوسائل والأثمان المشروعة ؛ وكانت خيبة أمل ، ولكن الحقيقة ظهرت ناصعة ، وهي أن شراء الكتب بالمزايدة وسيلة لا تصلح للعلماء ، وأن المزايدة (ولا سيما في مصر) ليست دائماً وسيلة شريفة للتعامل . فحذار أن تشتروا الكتب بالمزايدات !

وفاة مؤلف موسيقي شهير

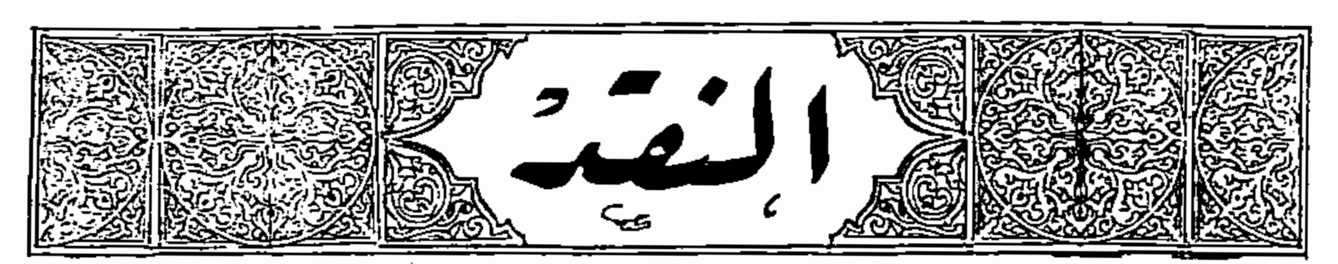
من أنباء النمسا أن المؤلف الموسيقي الشهير ماكس فون أوبرليتنر قد توفي في الثامنة والستين من عمره ، فاختفى بوفاته أحد أساطين المدرسة الموسيقية القديمة ، التي ازدهرت في أواخر أيام الامبراطورية ، وما زالت آثارها تخلب ألباب الشعب النمسوي . وقد تفرغ ماكس فون أوبرليتنر منذ شبابه للتأليف للأوبرا ، وأحرز في هذا الميدان نجاحاً باهراً ؛ وبزغ نجمه في سنة ١٩١٢ حيث لحنت قطعته الشهيرة « افروديتي » وعزفت في الأوبرا الامبراطورية بفينا ، وغنتها يومئذ فنانة موهوبة كانت في مستهل حياتها الفنية وهي ماريا يرتزا التي تتبوأ اليوم مقاماً فنياً سامياً في نيويورك وتعتبر أشهر مغنية في أمريكا . وفي سنة ١٩١٦ عزفت قطعته « المسيح الحديدي » « Dieeiseme Heiland » في « الأوبرا الشعبية » ، فأحرزت نجاحاً باهراً ، ثم عزفت بعد ذلك في عدة مسارح شهيرة نمسوية وألمانية ، وانتهت إلى دار الأوبرا ؛ ووضع فون أوبرليتنر بعد ذلك عدة مقطوعات وأوبرات كانت دائماً موضع التقدير والاعجاب

مدينة دولية للفنانين والكتاب

تألفت منذ حين في باريس جمعية اسمها « جمعية المدينة الدولية للفنون والتفكير » برئاسة مسيو جبرائيل بوامي الكاتب الشهير ورئيس تحرير مجلة « كوميديا » الكبرى ؛ وقد صرح رئيس هذه الجمعية أخيرا بأن الغرض من تأسيس هذه الجمعية هو السعي في إنشاء « مدينة دولية » بالقرب من محطة مونبارناس ، يخصص سكناها للعلماء والفنانين من جميع البلدان ، وإن الجمعية تعلق أكبر الأهمية على الآثار المادية والمعنوية التي تترتب على تنفيذ مثل هذا المشروع الجليل . ومن المعروف أن الحي الذي تختاره الجمعية لانشاء المدينة الجديدة ، وهو حي مونبارناس ، هو حي الفنون والآداب منذ بعيد ، وله تقاليد فنية وأدبية مؤثلة ، وتدرج فيه نجم مئات من الكتاب والفنانين ، الذين تفيض بهم دائماً ربوعه ومقاهيه

المعهد الامبراطوري ومهامه

يذكر القراء تلك الأحاديث الشائقة التي ألقاها وزير الخارجية البريطانية وبعض أكابر الساسة أمام عصبة الأمم عن توزيع المواد الخام ووجوب توزيعها بين الدول الكبرى بنسب أكثر عدالة ، وذلك لمناسبة النزاع القائم على توزيع المستعمرات واستئثار انكلترا بأعظم نصيب منها . وقد وقفت في بعض الصحف على معلومات هامة عن المعهد الامبراطوري الذي يعتبر في انكلترا قلب الاستعمار النابض ، والذي يسهر على مصادر المواد الأولية في جميع أنحاء العالم ؛ فهذا المعهد قد أسس للعمل على تنمية الاستغلال الصناعي والاستفادة من المواد الأولية المختلفة ، وجمع الاحصاءات والبيانات الاستعمارية اللازمة ؛ وقد زود المعمل بمعامل للأبحاث الكيميائية والفنية لبحث المواد الأولية وتعيين قيمتها ومدى الانتفاع بها ووضع التقارير الفنية عنها . ويصدر المعهد نشرات فنية محققة عن مختلف المواد الأولية وعلاقاتها بالصناعة ، ومدى تقدم الاستغلال الاستعماري في ميادين الزراعة والمعارف وغيرها ، ويعنى عناية خاصة بدرس المواد الأولية في الهند البريطانية والمستعمرات والأملاك المستقلة



٤ - تاريخ الاسلام السياسى

تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن

موضوع الكتاب ، الثقافة الإسلامية ، خاتمة

لأستاذ كبير

لست أدرى لم قصر مؤلف « تاريخ الاسلام السياسى » وصف كتابه على « السياسى » فحسب ، مع أنه عرض لنواح شتى من الحياة الاسلامية القديمة : عرض لنواحى الدين ، والسياسة ، والاجتماع ، والعقل ، والأدب . فبينا تقرأ له فصلا فى حكمة تشريع القبلة ، إذا بك تنتقل إلى فصل آخر موضوعه فتح عمرو بن العاص مصر ؛ وبينا تقرأ له فصولا فى عقائد الفرق الاسلامية القديمة ومذاهبها ، إذا بك تقرأ له كلاماً فى حال المرأة المسلمة فى العصر المتقدم ، ثم إذا بك تنتقل بعد إلى كلام مطول فى مناحى الشعر والنثر فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

أوما كان أولى للمؤلف أن يقدو هذه المزايا قدرها ، فيصوغ عنوان كتابه بحيث يدل عليها كلها مقتدياً فى ذلك بالسيد أمير على حين سمى كتابه الذى يعرفه المؤلف حق المعرفة « موجز تاريخ العرب » . لا شك أن الصفة السياسية الصحيحة ، كما يعرفها علماء التاريخ والعارفون بأصول علم السياسة ، ليست أبرز نواحى الكتاب ، وقد تكون عند التحقيق من أضعف نواحيه . ولكن من يدرى ؟ فلعل المؤلف قد لحظ هذه الحقيقة فنعت كتابه بأضعف صفاته تواضعاً منه ! وإن كان التواضع خلة قلما يدل عليها كتابه . أو لعل له غرضاً آخر يعرفه ولا نعرفه

والحق أن المؤلف أقدم على تأليف كتابه وليس له غرض واضح محدود يرمى اليه ويسير على هديه ، إلا أن يكون كتابة تاريخ عام للاسلام من الطراز المألوف وهو ما لا يدل عليه عنوان الكتاب . وغموض الغرض الحقيقى أو انتفاؤه بالمرة أضر بالكتاب من عدة وجوه . فمن جهة أحال الكتاب كتلة ضخمة من الأخبار والحوادث المتعلقة بعصر معين ، قد جمعت من هنا وهنا ، ثم حشدت حشداً ، وأزجيت على الورق إزجاء ، فاقدة الوحدة المعنوية ، والاتصال الذاتى ، اللذين يكسبانها الروح والحياة والحركة . ومن جهة ثانية فان غموض الغرض قد لبس على المؤلف أمره ، وجعله يضطرب بين طرائق المؤرخ المحقق ، والمحامى النافح عن الدين ، والواعظ المبشر بالاسلام ، والراد لشبهات المبشرين وتعسفات المستشرقين ؛ فعدل فى كثير من المواطن عما يحسن ، وتكلف ما لا يحسن ، وما ليس من شأنه من حيث هو مؤرخ فحسب . ومن جهة ثالثة فان نشاط المؤلف وعنايته لم يوزع على أجزاء الكتاب توزيعاً يتكافأ وأقدارها من الوجهة التاريخية البحتة ، فتشريع القبلة وحكمته يظفران بثلاث صفحات ، فى حين أن غزوة بدر التى تعتبر بحق أم وقائع الاسلام ومن وقائع التاريخ الفاصلة ، لا تكاد تظفر بصفحة واحدة ! وأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك تخص بصفحتين ، فى حين أن الأحداث الجسام التى وقعت زمن الخليفة يزيد ابن الوليد بن عبد الملك تركز وتضغط فى أسطر قلائل !

أوردها سعد وسعد مشتمل   ما هكذا تورد يا سعد الابل

***

ومن الأمور التى أثرت فى كتاب « تاريخ الاسلام السياسى » وقعدت به عن رتبة الجودة ما يدل عليه الكتاب نفسه من عدم وفور حظ المؤلف من الثقافة الاسلامية الصحيحة ، والمطلع على الكتاب يرى أن المؤلف يحاول جهده أن يكتم هذا الضعف ، ويستره بطلاء براق من الاقتباسات العربية الكثيرة التى يطالعك بها فى كل صفحة ، لكن هذه المحاولة لا تروج حتى على من يقرأ الكتاب قراءة عجلى . فان اللحن والتحريف الفاشيين فى الكتاب واللذين أعرضنا عن تتبعهما اختصارا للقول ، وتوخياً لصميم الموضوع ، وإن المآخذ التى سردنا بعضها فى بحوثنا الماضية ، نقول إن ذلك كله كفيل باثبات أن المؤلف غير موفور الثقافة

الاسلامية . وقد أداه تفريطه فى جانب الثقافة الاسلامية إلى الافراط فى الأخذ عن المصادر الأجنبية ، فخرج كتابه حائل الصبغة ، حائراً بين العروبة والفرنجة ، لا ينتمى إلى واحدة منهما انتماء صحيحاً

والحق أن التاريخ الاسلامى من أشق فروع التاريخ مطلباً وأوعرها منهجاً ، فهو تاريخ عالم بأسره ؛ لا مجرد تاريخ اقليم معين أو أمة بعينها . وهو تاريخ عصور متطاولة تقرب من أربعة عشر قرناً ، ثم هو تاريخ تختلط فيه الأحداث ، والنظم ، والآراء ، والمذاهب اختلاطاً عجيباً ، فاذا ما أريد تصنيفها وافراد كل منها على حدته ، وسوقه فى مساقه الخاص ، اقتضى ذلك من الجهد والعناء الشيء الكثير . والمانى لدراسته محتاج إلى وفور حظه من الثقافتين التاريخيتين العامة والاسلامية ، فان لم يفعل كان كمن يغشى الهيجاء بيد عزلاء ، أو يتقحم الجاهل برجل عرجاء . من أجل ذلك لم ينهض بعد التاريخ الاسلامى فى الشرق نهضته المستقلة المنشودة . مع أن التاريخ سجل أحداثه ، وديوان مجده وفخاره ، فهو لا يزال قصصاً يقص ، وسيراً ساذجة تتلى . أما روح الجماعات ، وأثر البيئة والتقاليد ، وعمل المبادئ والعقائد ، والقوى الاجتماعية والاقتصادية المختلفة ، فتلك كلها لا تزال فى العربية أسراراً لم ترفع عنها الحجب . وقد يعتذر بعضهم عن هذه الحال بأن العوامل المذكورة ليست عند الشرقيين فى مثل قوتها عند غيرهم ولكن الأمر هنا ليس أمر قوة وضعف ، فهى موجودة على كل حال ، والطبيعة البشرية واحدة ، والناس هم الناس سواء أكانوا فى شرق أم فى غرب . ولو أنصف أولئك المعتذرون لقالوا إن الذى يحول دون نمو الروح التاريخى الصحيح فى الشرق هو ما يعترض الباحث من وعورة المسلك ، وبعد الشقة ، وصعوبة المنال

* * *

وبعد فقد آن أن نختم هذه الفصول التى لم يدفعنا إلى تسطيرها إلا ما أشرت إليه فى كلمتى الأولى من توخى المصلحة العامة قبل كل شيء . فلعلى أكون قد وفقت فيما قصدت إليه

ونصيحتى الأخيرة للدكتور مؤلف « تاريخ الاسلام السياسى » أنه إذا أسعده الحظ فأعاد طبع كتابه ، ينبغى أن يعيد النظر فى كل فصل من فصوله ، وصفحة من صفحاته ، فيصحح الخطأ ، ويقيم المعوج ، وأنه عند ما يتولى إصدار الأجزاء الباقية ينبغى أن يكون أشد تحفظاً ، وأكثر تثبتاً ، فالناس لا يسألون عادة عن مقدار الزمن الذى ينفق فى عمل من الأعمال ، بمقدار ما يسألون عن حظ هذا العمل من التجويد والاتقان

بقى أن أبرأ إليه مما عسى أن يكون القلم قد ناله به فى هذه الكلمات من لفظ خشن ، أو عبارة قارسة ، فان ذلك مما قد يحمل عليه مجرد الغضب للحق . أما المآخذ العلمية فلا حيلة لى فيها ، وقديماً قالوا : « لا يزال الرجل فى فسحة من عقله مالم يقل شعراً أو يؤلف كتاباً » ، وقد ألف الدكتور كتاباً ، وسمع فيه مديحاً عاطراً كيل جزافاً ، فمن الحق عليه أن يسمع إلى جانب ذلك صوت النقد يكال بقدر وحساب ؟

(انتهى) مؤرخ